الفصل الثانى
الصفدى الشاعر

obeikandl.com

obeikandl.com

أوّل ما يحتاجه الشاعر الموهبة الفطريّة التى تمكنّه من تذوّق موسيقا الكلمات ، والإحساس المرهف بإيقاع اللغة ، والتمييز الواعى بين الألفاظ فى عذوبتها ، وحسن تعبيرها عن المشاعر ، ثم عليه أنْ ينمّى تلك الموهبة بالعلم ، والحفظ ، والرواية ، والنقد ، والصفدى شاعر موهوب ، ظهرت موهبته الشعريّة فى وقت مبكّر ، يدلُّ على ذلك أمور ، منها :

* شعره المروىّ فى مناسبة عودة الملك الناصر الثالثة ، إلى عرشه فى سنة ٧٠٩هـ [١] .

* وكتابه « ساجعات الغصن الرطيب فى مراثى نجم الدين الخطيب » ويضم قصائد شعرية ، ومقطعات من الشعر والنثر له ، جمعها فى رثاء أستاذه ، بعيد وفاته ، فى سنة ٧٢٣ هـ .

* كان شيخ الربوة (ت ٧٢٧ هـ) يعرض عليه قصائده ، ويطلب إليه تنقيحها ؛ فيعيد سبكها ، ويغيّر منها كثيرا [٢] .

* أذن له ابن سيّد الناس (ت ٧٣٤ هـ) فى إصلاح ما يعْثُر عليه من الزلل ، والوهم ، فيما صدر عنه من النثر والنظم [٣] .

ومعنى ذلك أنّه أصبح بارعا فى صناعة الشعر ، ماهرا فى فن النظم وهو فى شرخ الشباب ، وميعة الصِّبا .

تعهّد الشاعر موهبته بالصقل ، والتهذيب ، فأخذ يوسّع مداركه بالاطلاع الواسع ، والدراسة الجادة ، والذهن المتوقّد ، كما كان « من ولوعه بالرسم ، لأوّل نشأته ما أخرج منه خطّاطًا مبدعا ، وقوّى فيه موهبة التصوير فى الشعر والنثر ، وجمّل أدبه » [٤] وكانت له الرواية الكثيرة ؛ فنحن نعلم أنّه كان يروى ديوانى أبى تمّام ، والمتنبى بالإجازة ، وقرأ دواوين الشعراء :

القاضى الفاضل ، والوداعى ، والتلمسانى ، والشاب الظريف ، وابن دانيال ،

---

(١) انظر : صفحة ١٣ .

(٢) انظر : الوافى بالوفيات ٣ / ١٦٤ .

(٣) أعيان العصر ٥ / ٢١٢ .

(٤) كنوز الأجداد ٣٦٣ .

والجزار ، والسراج الوراق ، والعزازى ، وابن تميم وأبى حيان ، وابن الوردى ، وغيرهم ، وانتقى من تلك الدواوين مختارات استحسنها [١] ، وفى ترجمة أبى تمام يقول إنّه انتقى من ديوان الحماسة ١١٢٣ بيت فى كتاب سمّاه « نفائس الحماسة » كما انتقى من الشعر الذى جاء فى الموسوعة الضخمة « مسالك الأبصار » ، ويقول الصفدى : إنّه امتلك من دواوين الشعر :

دواوين : ابن الخياط ، وابن القيسرانى [٢] ، والوداعى [٣] .

وامتلك مؤلفات ابن سعيد كلها ، وأكثرها تضم اختيارات شعرية [٤] .

والموجود بين أيدينا ، اليوم من كتبه تدلّ على هذا الاطلاع الواسع ، ومدى عنايته بشعره ، وشعر غيره ؛ فقد وصل إلينا من كتبه التى تضم شعره : الحسن الصريح فى مائة مليح ، وحل ألغاز عن النيل ، وحل لغز منظوم ، وديوان الصفدى ، والروض الباسم والعرف الناسم ، والقصيدة التائية ، والقصيدة الطائية ، والقصيدة اللامية ، وموشح ، وغيرها من القصائد .

والكتب التى تضم أشعارا كثيرة له ، ولغيره هى : التذكرة وتوشيع التوشيح ، وجلوة المذاكرة ، وصرف العين ، وكشف السر المبهم فى لزوم ما لا يلزم ، ولذة السمع فى صفة الدمع ، وفض الختام عن التورية والاستخدام ، والهول المعجب فى القول الموجب ، وفى الوقت نفسه لا يكاد كتاب من كتبه يخلو من قصائد له ، ومقطعات ، يذكرها إذا جاورت ما يناسبها ، أو لها تعلّق بالمترجم ، أو استطرادا .

وقبل أنْ أتحدّث عن أغراض شعره ، وخصائصه الفنيّة ، أحبُّ أنْ أفنّد الدعوى التى أثارها ابن حجّة [٥] فى كتابه « خزانة الأدب » ، وهى دعوى سرقة الصفدى معانى ابن نباتة ، فيما سمّاه « خبز الشعير » وانقاد له البعض من القدماء ، ومن المعاصرين يرددون قوله ، دون أنْ يتبيَّنُوا الحقيقة ، أو يتحرّوا أمانة العلم .

---

(١) راجع : مؤلفات الصفدى .

(٢) الوافى بالوفيات ٥ / ١١٣ .

(٣) نفسه ٢٢ / ٢٠١ .

(٤) نفسه ٢٢ / ٢٥٣ .

(٥) أبو بكر بن على بن عبد الله ، تقى الدين (٧٦٧ - ٨٣٧ هـ) شاعر ، ناقد ، أديب ، من كتاب الإنشاء ، صاحب خزانة الأدب .

انظر : الأعلام ٢ / ٦٧ ، ومعجم المؤلفين٣ / ٦٧ .

خبز الشعير المأكول المذموم :

خبز الشعير المأكول المذموم نحو أربع صفحات ، سمّاها ابن حجّة « كتابا » ، ونسبه لابن نباتة ، وتغنى ببراعة الاستهلال فيه ، ونقل مقدّمته ، وسبب التسمية ، قال [١] : « وأمّا براعة الشيخ جمال الدين ابن نباتة فى خطبة كتابه المسمى بـ « خبز الشعير » فإنّها خاص الخاص ، ولا بدَّ من مقدّمة تكون هى النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبز الشعير ؛ فإنّه مأكول مذموم ، ما ذاك إلاّ إنّه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ، ويسكنه بيتا من أبياته العامرة بالمحاسن ، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى بلفظه ولا يغيّر فيه غير البحر ، وربّما عام به فى بحر طويل ، يفتقر إلى كثرة الحشو ، واستعمال ما لا يلائم ، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلاّ أنّه جمعه ، من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين ، واستهلّ خطبته بقوله تعالى : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [٢] ، ورتّب كتابه المذكور على قوله : (قلت أنا :) ، (فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال :) [٣] ، وأورد ابن حجّة اثنتين وعشرين مقطوعة ، زعم أنّ الصفدى سرق معانيها من ابن نباتة .

وادّعاء ابن حجّة بأنَّ ابن نباتة « كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه » منقوض بقوله عنه : إنّه « تطفّل على موائد نكت الوداعى [٤] ومعانيه ، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه » [٥] .

وقوله : « فكما أغار الشيخ جمال الدين على الوداعى ، ودخل إلى بيوته ، وابتذل حجاب بنات فكره ، قيّض الله له الشيخ صلاح الدين الصفدى » [٦] ،

---

(١) انظر : خزانة الأدب ١ / ٤١ .

(٢) سورة نوح : ٧١ / ٢٨ .

(٣) خزانة الأدب ٢ / ١٢١ .

(٤) على بن المظفر بن إبراهيم ، علاء الدين ، الكندى ، الإسكندرانى (٦٤٠ - ٧١٦ هـ) أديب ، شاعر ، حافظ . انظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٥٠٣ ، وأعيان العصر ٥٤٦/٣ ، وبدائع الزهور ١ / ١ / ٤٤٧ ، والأعلام ٥ / ٢٣ ،
ومعجم المؤلفين ٧ / ٢٤٣ .

(٥) خزانة الأدب ٢ / ١٠٨ - ١١٦ .

(٦) خزانة الأدب ٢ / ١٢١ .

ولا يكاد باب من أبواب خزانة الأدب يخلو من إيراد سرقات ابن نباتة من ابن سناء الملك [١] ، والسراج الورّاق [٢] ، والجزار [٣] ، وابن عبد الظاهر [٤] ، والبدر لؤلؤ الذهبى [٥] ، وشيخ الشيوخ [٦] ، وابن تميم [٧] ، وغيرهم .

وما ذكره من سرقات الصفدى فهو أنموذج من التلفيق ، والتزوير ، يثير العجب ، فمثلا ، يقول [٨] :

« قال الشيخ جمال الدين : قلت :

يَا عَاذِلِى شَمْسُ النَّهَارِ جَمِيلَةٌ وَجَمَالُ فَاتِنَتِى أَلَـذُّ ، وَأَزْيَنُ
فَانْظُرْ إِلَى حُسْنَيْهِمَا مُتَأَمِّلاً وَادْفَعْ مَلاَمَكَ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

فأخذه الشيخ صلاح الدين ، مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية ، وقال :

بِأَبِى فَتَاةٌ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهَا وَجَمَالِ بَهْجَتِهَا تَحَارُ الأَعْيُنُ
كَمْ قَدْ دَفَعْتُ عَوَاذِلِى عَنْ وَجْهِهَا لَمَّا تَبَدَّتْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

وهذان البيتان ليسا من شعر الصفدى ، ولم ينسبهما له أحد ، وإنّما هما للقاضى محيى الدين بن عبد الظاهر [٩] ، وأخذهما عنه ابن نباتة « مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية » كما قال .

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ٤٨ .
(٢) نفسه ٢ / ٧٠ .
(٣) نفسه ٢ / ٦٢ .
(٤) نفسه ٢ / ٦٨ .
(٥) نفسه ٢ / ٩٠ .
(٦) نفسه ٢ / ٧١ ، و٧٣ .
(٧) نفسه ٢ / ٧٥ .
(٨) نفسه ٢ / ١٢٣ .
(٩) أبو الفضل ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان ، الجذامى السعدى (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ) أديب ، شاعر ، مؤرخ ، من كتاب الإنشاء . انظر : تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٧ ، وعيون التواريخ ١٤٠ ، والمنهل الصافى ٧ / ٩٨، والدليل الشافى ١ / ٣٨٧ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٦٤، وعقد الجمان ٣ / ١٩٦، وتاريخ ابن الفرات ٨ / ١٦٢ ، والأعلام ٤ / ٩٨ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ٧٤ .
والبيتان له فى ديوانه (مخطوط الأزهر غير مرقم) ومعاهد التنصيص ٤ / ١٠٤ ، وأنوار الربيع ٥ / ٢٧ .

والغريب أنّ ابن حجة نفسه أوردهما منسوبين لابن عبد الظاهر ، ووصفهما بأنّهما من بديع اقتباسه بالتورية ، ونصّ على أنّ ابن نباتة أخذهما عنه ، ومن بعده العز الموصلى [١] ، ووصف هذين الأخذين الأخيرين بقوله : « هذا الاقتباس بالتورية أخذه الشيخ جمال الدين بقافيته ، ولكن زاده إيضاحا » ، و « ألمّ به الشيخ عز الدين الموصلى وما خرج عن إيضاحه أيضا » [٢] .

فأَخْذ الصفدى من ابن نباتة - وهو زور وبهتان - « مع البحر ، بل أخذ الكل ، مع القافية » ، وأَخْذ ابن نباتة ، والعز الموصلى « بقافيته ، ولكن زاده إيضاحا » .

إنّ تحامل ابن حجّة على الصفدى ، وحسده له حقيقة تنضح بها كتبه ، وبخاصّة خزانة الأدب ، وكشف اللثام ، بل إنّه ليصرّح بذلك « وقد عنّ لى أنّنى إذا فرغت من هذا الشرح أنْ أفرد بابا للتورية والاستخدام ، وأجعلهما مصنفا مفردا ، وأسمّيه » كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام « فإنّ الشيخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه لم يشف القلوب بترتيبه ، ولا تفقّه فى بديعه وغريبه » [٣] .

وهذا مثل آخر من أمثلة مجانبة الصواب ، قال [٤] :

قال الشيخ جمال الدين ابن نباتة : قلت :

أَسْعِدْ بِهَا يَا قَمَرِى بَرْزَةً ... سَعِيدَةَ الطَّالِعِ وَالغَارِبِ
صَرَعْتِ طَيْرًا ، وَسَكَنْتِ الحَشَا ... فَمَا تَعَدَّيْتِ عَنِ الوَاجِبِ

فأخذه الشيخ صلاح الدين ، وقال :

قُلْتُ لَهُ ، وَالطَّيْرُ مِنْ فَوْقِهِ ... يَصْرَعُهُ بِالبُنْدُقِ الصَّائِبِ :
سَكَنْتَ قَلْبِى ، فَحَرَّكْتَهُ ... فَقَالَ : لَمْ أَخْرُجْ عَنِ الوَاجِبِ

---

(١) على بن الحسين بن على ، عز الدين (ت ٧٨٩ هـ) شاعر ، له ديوان شعر ، وبديعية . انظر : الأعلام ٤ / ٢٨٠ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٧٥ .

(٢) خزانة الأدب ٢ / ٦٧ - ٦٨ .

(٣) خزانة الأدب ٢ / ١٠٨ .

(٤) نفسه ٢ / ١٢١ .

ويشير النقاد [١] إلى أنَّ « نكتة الواجب » هذه من اختراع السراج الورّاق [٢] ، وأنّ ابن نباتة أخذها من قول الورّاق :

يَا سَاكِنًا قَلْبِى عَلَى أَنَّهُ بِوَجْدِهِ فِى قَلَقٍ دَائِبِ
قَلْبِىَ مِنْ خَوْفِ النَّوَى وَاجِبٌ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرُجْ عَنِ الوَاجِبِ

والمعروف أنّ الصفدى جمع ديوان السراج الورّاق ، وانتقى منه كتابه « لمع السراج » ، والبيتان مما أوردهما له فى كتابه [٣] ، والنظر الناقد يحكم بأنّ بيتى الصفدى أقرب إلى قول السّراج منه إلى قول ابن نباتة معنى ولفظا ، والمعروف - أيضا - أنّ لابن نباتة مختارات من دواوين بعض الشعراء [٤] ، وليس ديوان السراج الوراق من بينها ، ولم تكن حالته المادية تسمح له بامتلاك هذا الديوان الضخم الذى يقع فى ستة مجلدات ، والرّاجح ، عندى أنّ ابن نباتة لم يعرف شعر الورّاق إلاّ من خلال مكتبة الصفدى ، ولو أراد ابن حجّة الإنصاف لقال : إنّ ابن نباتة والصفدى كليهما أخذ المعنى من السراج الوراق ، أمّا ادّعاؤه بأنَّ الصفدى سرق المعنى من سارق مثله ، فلعمرى هو الضلال بعينه .

ويمكن القطع بأنّ قصة « خبز الشعير » هذه تهمة باطلة ، لا أساس لها ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : ليس لهذا الكتاب وجود مخطوط فى مكان معروف ، والمعاصرون لابن نباتة ، ومَنْ بعدهم ، كالصفدى ، وابن كثير ، وابن حجر ، وغيرهم من ثقات المؤرخين الذين ترجموا ابن نباتة لم يذكروا له كتابا بهذا الاسم ، ولم يشر أحدهم إليه .

ثانيا : معروف أنّ ابن نباتة ولد قبل الصفدى ، وعاش بعده أربع سنوات ، فمتى ألّف هذا الكتاب ؟

---

(١) نفسه ٢ / ٥٥ ، ومعاهد التنصيص ٤ / ١٠٢ .

(٢) أبو حفص ، عمر بن محمد بن حسن سراج الدين (٦١٥ - ٦٩٥ هـ)
أشهر شعراء مصر فى عصره . انظر : درة الأسلاك ١٣١ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٨٧ ، وعيون التواريخ ٢٠٧ ، وعقد الجمان ٣ / ٣٣١ ، وتالى وفيات الأعيان ١١٧ ، والسلوك ١ / ١ / ٨١٨ ، والأعلام ٥ / ٦٣ ومعجم المؤلفين ٣٠٩/٧

(٣) لمع السراج ٢٦٤ / ب .

(٤) انظر : ابن نباتة ٢٥٢ .

أمامنا احتمالان : إمّا فى حياة الصفدى ، أو بعد وفاته .

فلو كان قد كتبه فى حياة الصفدى لكان هو أوّل من نبّه عليه ، وأشار إليه ، هذا ما نعرفه من خلق الصفدى ، وأمانته ، والدليل على ذلك :

* أنّه يصرّح بمحاكاته موشحات المحّار[١] ، ويقول فى تواضع جم : « فنظمت ، مع علمى ما ينبغى للعاقل أنْ يُعَارِضَ ما رُزِقَ السعد ، وبالله التوفيق »[٢] .

* أنّه يصرّح بأخذه المعنى من غيره ، فقد روى قول أبى عامر الفضل بن إسماعيل ، الجرجانى[٣] :

عَذِيرِىَ مِنْ شَادِنٍ أَغْضَبُوه ... فَجَرَّدَ لِى مُرْهَفًا بَاتِكَا

وَقَالَ : أَنَا لَكَ يَابْنَ الوَكِيلِ ... وَهَلْ لِى رَجَاءٌ سِوَى ذَالِكَا ؟

أخذه ابن الوكيل[٤] ، فقال :

وَرِبِى مَنْ قَسَا قَلْبًا ، وَلانَ مَعَاطِفًا ... إذَا قُلْتُ : أَدْنَانِى ، يُضَاعِفُ تَبْعِيدِى

أُقِرُّ بِرِقٍّ إذْ أَقُولُ : أَنَا لَهُ ... وَكَمْ قَالَهَا أَيْضًا ، وَلَكِنْ لِتَهْدِيدِى

وقال : « وهذا المعنى قد ابتكره الجرجانى أبو عامر ، وترك فيه فضلة ، فجاء الشيخ صدر الدين - رحمه الله تعالى - وجوّده ، ولم يبق لأحد ، بعده مطمح إلى زيادة ، ولا مطمح فى إفادة ، وما بقى إلاّ اختصار ألفاظه ، فقط ، فقلت :

قَالَ حِبِّى : أَنَا لَهُ ... وَلَكَمْ قُلْتُ : سَرْمَدَا

أَنَا لِلْمِلْكُ قُلْتُهَا ... وَهْوَ لِلْغَيْظِ هَدَّدَا

---

(١) أبو الخطاب ، عمر بن مسعود بن عمر ، سراج الدين ، الكتانى (ت ٧١١هـ) شاعر ، أديب ، مؤرخ . انظر : أعيان العصر ٣ / ٦٦٢ ، والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٢١ ، وإعلام النبلاء ٤ / ٥٠٠ ، والأعلام ٥ / ٦٦ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٣٢٠ .

(٢) أعيان العصر ٣ / ٦٧١ .

(٣) الوافى بالوفيات ٤ / ٢٧٥ - ٢٧٦ ، والهول المعجب ٥٩ .

والجرجانى كان حيا عام ٤٥٨ هـ ، له ترجمة فى دمية القصر ٢ / ١٥ .

(٤) أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن مكى ، صدر الدين ، ابن المرحل (٦٦٥ - ٧١٦ هـ) فقيه ، شاعر . انظر : التذكرة الصفدية جـ ١٣ / ١٠٢ / ب (مخطوط دار الكتب المصرية) وأعيان العصر ٥ / ٥ ، ودرة الأسلاك ٢٠٥ ، وذيول العبر ٤ / ٤٥ ، وتذكرة النبيه ٢ / ٧٧ ، والمقفى الكبير ٦ / ٤٣٥ ، وكنز الدرر ٨ / ٣٨٥ ، والأعلام ٦ / ٣١٤ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٩٤ .

* أنّه يصرّح بتفضيل شعر غيره على شعره ، أحيانا ؛ فيعلّق على بيتين من شعر الحاجبى [١] ، قالهما فى معنى بيتين له [٢] :

« قال هو ، واختصر ، وأجاد » .

ولو أخذ الصفدى من معانى ابن نباتة لذكر ذلك صراحة ، كما عوّدتنا أمانته العلمية .

ولو كان ابن نباتة قد كتب كتابه هذا بعد وفاة الصفدى ، فهل رَضِىَ لنفسه تجريح تلميذه ، وصديقه ، ومعينه على الشدائد ؟

لا أظنّ ذلك .

ففى سيرة ابن نباتة أنّه كان كثير العيال ، قليل المال ؛ فقد كان الملك المؤيد يعطيه راتبا سنويا مقداره ٦٠٠ درهم تدفع إليه بصفة منتظمة [٣] ، يعنى أقلّ من درهمين فى اليوم وكان أبوه يساعده ؛ فكان « كل ما يُحَصِّلُة ينفقه على أحفاده ، أولاد ولده » [٤] ، ويبدو أنّ الصفدى كان يبرّه ، ويمدّ له يد العون وبخاصة بعد وفاة الملك المؤيد ، فكتب إليه يعاتبه فى سنة ٧٣٢ هـ [٥] على تأخّر برّه به ، وحرجه من مكاتبته له :

« إنّه كان كسير الخاطر ، حسير الناظر ؛ لانقطاع برّ مولانا الممتاز ، ولامتناع المملوك من المكاتبة ظنًّا أنَّ بينها وبين القصد حجاز » ، أ يكون الوفاء بين الرجلين أنْ يجرّح الحى منهما الميّت ؟

ثالثا : إذا تأمّلنا المعانى التى تضمّنها « خبز الشعير » نجدها نوعا من اختبار القدرات ، وشحذ القرائح ، ورياضة المواهب ، وهى صفات شاعت فى ذلك العصر ، وأصبحت أخصّ سماته ، فى الوقت الذى ندر فيه الابتكار ، وقلّ

---

(١) أحمد بن محمد ، شهاب الدين (ت ٧٤٩ هـ) جندى ، شاعر . انظر : أعيان العصر ١ / ٣٦٦ ، والوافى بالوفيات ٨ / ١٦١ ، والدرر الكامنة ١ / ٣١٢ والمنهل الصافى ٢ / ١٨٨ .

(٢) أعيان العصر ١ / ٣٦٨ ، ومثله فى الأعيان ٥ / ١٣٩ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٥٠٥ .

(٤) أعيان العصر ٥ / ١٩٢ .

(٥) الوافى بالوفيات ١ / ٣٢٠ .

التجديد ؛ فامتلأت كتب النقد عند الأقدمين بما عُرف بالتضمين ، والاقتباس ، والإيداع ، والإتباع ، والتشطير ، والتسميط ، والاهتدام [١] ، إلى جانب الألغاز ، وغيرها من المسميّات الكثيرة التى توحى بتداول المعانى .

ويورد ابن حجّة نفسه أبياتا لمعان تسلسل دورانها ، بين جماعة من الشعراء - كالضَّيَاع ، والدَّوْر [٢] - ولم يصف واحدًا منهم بالسرقة ؛ لأنّ المعنى إذا استفاض على ألسن الشعراء « حمى نفسه عن السّرق ، وأزال عن صاحبه مذمّة الأخذ » [٣] ؛ ولأنَّ المعانى الجمهورية العامة لا تكون السرقة فيها ، ولا يختصّ بها شاعر دون غيره .

رابعا : قال الصفدى [٤] : « كنت أجلس أنا وهو ، عند شبّاك الكامليّة ، نتذاكر ، فى الجامع الأموى ، كلّ ليلة ، بعد صلاة العصر » ؛ فبين الرجلين صداقة ، ومودّة ، ومطارحات ، ومحاورات ، ونجد قدرا مشتركا من الألفاظ ، والمعانى فى الأبيات التى حوتها الرسائل المتبادلة بين الشاعرين ، على نحو ما جاء فى خبز الشعير ، فمثلا :

قال الصفدى [٥] : « أنشدنى من لفظه ، لنفسه ، المولى جمال الدين محمد ابن نباتة :

سَأَلْتُ النَّقَا ، وَالبَانُ يَحْكِي لِنَاظِرِى ... رَوَادِفَ ، أَوْ أَعْطَافَ مَنْ طَالَ صَدُّهَا

فَقَالَ كَثِيبُ الرَّمْلِ : مَا أَنَا حِمْلُهَا ... وَقَالَ قَضِيبُ البَانِ : مَا أَنَا قَدُّهَا

فلمَّا أصبحت أنشدته ، فى معناه :

يَقُولُ رِدْفُ حَبِيبِى ... وَعِطْفُهُ الْمُتَثَنِّى :

مَا أَنْتَ يَا غُصْنُ قَدِّى ... وَلاَ كَثِيبُكَ وَزْنِى

فقال : ما أُشَبِّه نظمى ، ونظمك إلاّ ببشار بن برد ، وسلم الخاسر » .

---

(١) الاهتدام - أو النسخ - : هو السرقة فيما دون البيت . انظر : معجم البلاغة ٢ / ٩٠٤ .

(٢) خزانة الأدب ٢ / ٧٧ - ٧٩ .

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ١٨٥ .

(٤) الوافى بالوفيات ١ / ٣٢٦ .

(٥) الغيث المسجم ١ / ٤٠٣ .

وقال الصفدى [١] : كنت قد نظمت قديما ، فى سنة سبعمائة وثمانية عشر معنى خطر لى ، فى العذار ، وهو :

وَأَهْيَفَ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَى تَمِيلُ حَمَامَاتُ الأَرَاكِ إِلَيْهِ
لَهُ عَارِضٌ ، لَمَّا رَأَى الطَّرْفَ نَاعِسًا أَتَى خَدَّهُ سِرًّا ، وَدَبَّ عَلَيْهِ

فوقفت على المعنى بعينه ، للمولى جمال الدين محمد ابن نباتة ، وأنشدنيه من لفظه ، فيما بعد ، سنة سبعمائة وتسعة عشر :

وَبِمُهْجَتِى رَشَأٌ يَمِيسُ قَوَامُهُ فَكَأَنَّهُ نَشْوَانُ مِنْ شَفَتَيْهِ
شُغِفَ العِذَارُ بِخَدِّهِ ، وَرَآهُ قَدْ نَعَسَتْ لَوَاحِظُهُ ، فَدَبَّ عَلَيْهِ

فنظمت أنا ، عندما وقفت عليهما ، سنة سبعمائة وعشرين :

عِذَارُكَ وَالطَّرْفُ يَا قَاتِلِى يُحَاكِيهِمَا الآسُ وَالنَّرْجِسُ
وَقَدْ صَارَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ فَهَذَا يَدِبُّ ، وَذَا يَنْعُسُ

ومن هذه النصوص نستدلّ على ما كان بين الرجلين من المطارحات ، والمسامرات ، وتبادل المعانى .

وعلى هذا النحو - أيضا - أبيات بين الصفدى وأبى الثناء محمود ، وفيها توجيه له بالإكثار من الجناس المركب ، وتدريب له على المعارضة [٢] .

ويبدو أنّ هذه المطارحات ، والنقائض كانت شائعة - أيضا - فى ذلك الوقت ، يقول الصفدى فى ترجمة الخيّاط [٣] الشاعر [٤] : « كان قد سلّطه الله عليه ، كلّما نظم شيئا ناقضه فيه ، فهما فرزدق وجرير عصرهما ، ولولا خوف التطويل لأوردت كثيرا من ذلك » .

---

(١) العيث المسجم ٢ / ٨ - ٩ .

(٢) أعيان العصر ٥ / ٣٧٩ - ٣٩٩ .

(٣) محمد بن يوسف بن عبد الله ، شمس الدين ، الدمشقى ، المعروف بالضفدع (٦٩٣ - ٧٥٦هـ) شاعر هجّاء ، له ديوان ضخم . انظر : أعيان العصر ٥/ ٣٥٣ ، والوافى بالوفيات ٥ / ٢٨٣ ، وفيات السلامى ١ / ٣٢٩ ، والأعلام ٧ / ١٥٣ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٢٧ .

(٤) أعيان العصر ٥ / ٣٥٨ .

لكل تلك الأسباب ننفى مذمّة « خبز الشعير » عن الشاعرين الكبيرين ، ولكن يبقى سؤالان :

من صاحب خبز الشعير هذا ؟

ولماذا قَصَد صاحبه الحطَّ من شعر الصفدى ؟

عن السؤال الأول أجيب : أغلب الظنّ أنّ خبز الشعير من وضع العز الموصلى ؛ إذ جمع فى « تذكرته » بعض مطارحات أستاذه ابن نباتة مع زميل دراسته الصفدى ، ووجد فيها قدرا من المقطوعات الشعرية التى تشتمل على معنى واحد ، ولفظ مشترك ؛ فضمّ بعضها إلى بعض ، وأذاعها فى الناس ؛ لحاجة فى نفسه من طريق تلميذه ابن حجّة الذى وجد فيه خير معين على نفث سمومه ، فقد شُهر بكراهيته الشديدة للصفدى ، « والغمز فيه ، والتحامل عليه ، والإشارة بالنقص إليه » [١] ، كما عُرِف عنه إزراؤه بشعراء عصره ، والحطّ من أقدارهم [٢] ، ووافق طبق شنّه .

وعن السؤال الثانى أجيب : يبدو أنّ الصفدى هو الذى أوحى إلى خصومه بما يصطنعون منه مغمزا فيه ، وفتح لهم طريقا يلجون فيها فقد ادّعى أنَّ الحاجبى ، وابن الوردى يتتبعان شعره ، ويسرقان منه معانيه [٣] ، والحاجبى جندى ، محدود الثقافة ، قليل الخبرة بالرواية والشعر ، فلا غرابة أن يتتبع الصفدى ، ويسرق منه ، وأمّا ابن الوردى فهو شاعر فحل ، له أنصاره ، ومحبوه ، ومنهم ابن حجر الذى انبرى للدفاع عنه ، وقال [٤] : « لم يأت بدليل على أنّ ابن الوردى هو المختلس ، بل المتبادر إلى الذهن عكس ذلك ، نعم استشهد الصفدى على صحّة دعواه بقول ابن الوردى :

وَأَسْرِقُ مَا أَرَدْتُ مِنَ الْمَعَانِى ... فَإِنْ فُقْتُ الْقَدِيمَ حَمِدْتُ سَيْرِى

وَإِنْ سَاوَيْتُهُ نَظْمًا فَحَسْبِى ... مُسَاوَاةُ القَدِيمِ ، وَذَا لِخَيْرِى

وَإِنْ كَانَ القَدِيمُ أَتَمَّ مَعْنَى ... فَهَذَا مَبْلَغِى ، وَمَطَارُ طَيْرِى

وَإِنَّ الدِّرْهَمَ الْمَضْرُوبَ بِاسْمِى ... أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ دِينَارِ غَيْرِى

---

(١) انظر : أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٢) انظر : شذرات الذهب ٧ / ٢١٩ ، والبدر الطالع ١ / ١٦٥ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٣٦٨ ، و ٣ / ٦٩٣ ، وعنه البدر الطالع ١ / ٥١٤ .

(٤) الدرر الكامنة ٣ / ١٩٥ .

وإذا كان من الصعوبة بمكان محاولة إثبات السّرقة بين شاعرين متعاصرين ، وبخاصّة إذا جمعت بينهما أواصر الصداقة ، وروابط الدراسة ، وطول المعايشة ، فى ظل بلد واحد ، وفى الوقت الذى شاع فيه تداول المعانى ، ونضوب القرائح ، واتجاه الشعراء إلى الصنعة اللفظية ، يزيّنون بها نظمهم ، بالرغم من كل ذلك فإنَّ لنا وقفة مع رأى ابن حجر ؛ لنَسْأَله :

بم حَكَمْتَ - وأنت الحافظ - على موقف الكفار الذين صَدّقوا رسول الله ﷺ وكذّبوه فى الوقت نفسه ؟ (١) ، وهل ترضى لنفسك أن تسلك هذه الطريق ؟ ألست مَنْ وَثَّق رواية الصّفدى وردّ رواية أستاذه الذهبى ؟ (٢) ، أَبَلَغَكَ مَنْ كَذَّبَ الصفدى وردّ روايته ، وما بين أيدينا من تراجمه تجمع على أمانته ؟

ثمّ ما دليلك أنت على أنّ الصفدى هو الذى يسرق معانى ابن الوردى ، وليس العكس ؟ أم يُطْلَب منه هو الدليل ، وتُعْفَى منه أنت ؟ .

ثمّ كيف تنكر اعتراف ابن الوردى ، والاعتراف - شرعا ، وقانونا - سيّد الأدلّة ؟ ولماذا أخفيت الشهود ؟ فرواية الصفدى فى أعيان العصر الذى تنقل عنه ، تقول : « لمّا وقفت على كتابه - يعنى ابن الوردى - « الكلام على مائة غلام » عند القاضى الرئيس بهاء الدين حسن بن ريّان (٣) ، وجدت غالبه من نظمى فى « الحسن الصريح فى مائة مليح » وكان ذلك عُقَيْب قدومى من القاهرة ، فقلت له : يا مولانا اكتب إليه ، وقل له : قد وقع صاحب العملة بها ، وعرفها ؛ فكتب إليه ، وعرّفه المقصود ، فغيّر فيها أشياء ؛ فلهذا ترى نسختين ، ثمّ وقفت له على أشياء ، فى غير ما نوع قد اغتصبها ، واختلسها ، فكتبت إليه - رحمه الله تعالى - :

---

(١) لمّا نزل قول الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء ٢٦ : ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ الصفا ، وسأل من اجتمع إليه من قومه : « أَرَأَيْتُكُم لَوْ أَخْبَرْتُكُم أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ . قالوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا ، قال : فَإِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ ، بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ ؛ فقال أبو لهب : تَبًّا لَكَ ، أَ لِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ » وانصرفوا عنه مكذّبين . راجع السيرة النبوية ، للذهبى ١٤٦

(٢) انظر : الدرر الكامنة ١ / ٧٢ .

(٣) أبو محمد ، الحسن بن سليمان بن أبى الحسن بن سليمان بن ريّان (٧٠١ - ٧٦٨ هـ) ناظر الجيش ، بحلب . انظر : الوافى بالوفيات ١٢ / ٣٥ ، والدرر الكامنة ٢ / ١٦ .

أَغَرْتَ عَلَى أَبْكَارِ فِكْرِى ، وَلَمْ أَغَرْ عَلَيْهَا ؛ فَلا تَجْزَعْ ، فَمَا أَنَا وَاجِدُ
وَلَوْ غَيْرُ مَوْلاَى اسْتَبَاحَ حِجَابَهَا أَتَتْهُ مِنَ العَتْبِ الأَلِيمِ قَصَائِدُ
قَوَاطِعُ لاَ تَحْمِيهِ دِرْعُ اعْتِذَارِهَا وَأَلْسُنُهَا عِنْدَ الخِصَامِ مَبَارِدُ
وَلَكِنَّهُ لاَ فَرْقَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ يَبِينُ ؛ لأَنَّا فِى الحَقِيقَةِ وَاحِدُ

فكتب هو الجواب إلىّ ، وأجاد :

وَأَسْرِقُ مَا أَرَدْتُ مِنَ الْمَعَانِى .. .. الأبيات

هل ما زال هناك شك بعد هذه الوقائع ، والشهود ، والاعتراف ؟ .

وأكتفى بما ذكرت ؛ لدحض فرية « خبز الشعير » لأكمل حديثى عن شعر الصفدى .

شعر الصفدى وآراء النقاد فيه :

إذا كان أهل صناعة أدرى الناس بأسرارها ، والشعر صناعة لا يعرفها إلاّ أهل العلم بها [١] ؛ فابن نباتة فى إجازته الصفدى يفرط فى الثناء عليه ، وعلى شعره الذى « يسرى الطائيّان تحت علمه المنشور....إنْ شَعَرَ هامت الشعراء بذِكْرِه فى كل واد ، وخَمَل ذِكْرُها فى كل ناد ، ونُصِبَتْ بيوته على يَفَاع الشّرف ، كما تنصب بيوت الأجواد ، طالما بلّد لبيدا ، وولّى شعر ابن مقبل منه شريدا ، وقالت الآداب لبحترىّ لفظه : ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ؟ » [٢] .

وفى بعض الأحيان يكون الطعن ، والتجريح أصدق الأدلّة على عظمة الشاعر ، وعلو قدره ، وارتفاع منزلته ؛ فلكل شاعر كبير المعجبون به ، والحاقدون عليه ، ورأى الفريقين يخدم العلم ، ويثرى فنّ النقد ، ويكشف جوانب مجهولة ، فى شعره ، و يجلّى غوامض مذهبه الفنى ، وخصائص أسلوبه ، وقد وجد الصفدى من الشعراء ، والنقاد طائفتين :

---

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء ٨ ، والعمدة ١ / ١١٧ .

(٢) الوافى بالوفيات ١ / ٣١٥ ، وخزانة الأدب ٢ / ١٣٥ . وهى إشارة إلى الآية الكريمة ١٨ من سورة الشعراء

واحدة : تحسده ، وتتحامل عليه ، كان يتزعّمها العز الموصلى ، والبدر البَشْتَكِىّ [١] ، وابن أبى حَجَلَة [٢] ، وابن حجة .

* قال البدر البشتكى معلّقا على ولع الصفدى بالجناس الملفّق : « إنَّ مَنْ ذلك مبلغه من النظم لجدير أنْ يقعد مع صغار المتأدبين » [٣] .

* قال ابن حجّة : « كان الشيخ صلاح الدين الصفدى يستسمن وَرَمَه ، ويظنه شحما ؛ فيشبع أفكاره منه ، ويملأ بطون دفاتره ؛ ويأتى فيه بتراكيب ، تخفّ عندها جلاميد الصخور » [٤] .

* وكان ابن أبى حجلة « يغمز فيه ، وفيما كان من شعر ورسالة يأتيه ، فقد علّق على قول الصفدى [٥] :

يَا طِيبَ نَشْرٍ هَبَّ لِى مِنْ نَحْوِكُمْ فَأَثَار كَامِنَ لَوْعَتِى ، وَتَهَتُّكِى
أَهْدَى تَحِيَّتَكُمْ ، وَأَشْبَهَ لُطْفَكُمْ وَرَوَى شَذَاكُمُ ، إنَّ ذَا نَشْرٌ ذَكِى

قال ابن أبى حجلة :

إنَّ ابْنَ أَيْبَكَ لَمْ تَزَلْ سَرِقَاتُه تَأْتِى بِكُلِّ قَبِيحَةٍ ، وَقَبِيحِ
نَسَبَ الْمَعَانِى فِى النَّسِيمِ لِنَفْسِهِ جَهْلاً ، فَرَاحَ كَلاَمُهُ فِى الرِّيحِ

والثانية : تناصره ، وتدافع عنه ، منهم : ابن كثير ، وابن تغرى بردى ، وابن معصوم ، والخوانسارى [٦] .

---

(١) أبو البقاء ، محمد بن إبراهيم بن محمد ، الأنصارى (٧٤٨ - ٨٣٠ هـ) أديب ، شاعر ، ألّف فى طبقات الشعراء ، وله ديوان شعر .
انظر : الأعلام ٥ / ٣٠٠ ، ومعجم المؤلفين ٨ / ٢١٥ .

(٢) أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن أبى بكر ، شهاب الدين التلمسانى (٧٢٥ - ٧٧٦ هـ) شاعر ، أديب ، له أكثر من ثمانين مصنفا .
انظر : الأعلام ١ / ٢٦٨ ، ومعجم المؤلفين ٢ / ٢٠١ .

(٣) خزانة الأدب ١ / ٥٦ .

(٤) نفسه ١ / ٥٥ .

(٥) خزانة الأدب ٢ / ٦٥ ، وعنه روضات الجنات ٧١٧ .

(٦) محمد باقر بن زين العابدين بن جعفر الموسوى (١٢٢٦ - ١٣١٣ هـ) مؤرخ ، أديب ، صاحب روضات الجنات .
انظر : الأعلام ٦ / ٤٩ ، ومعجم المؤلفين ٩ / ٨٧ .

وهذه طائفة من أقوال النقاد فى شعره :

* قال ابن كثير : « له الأشعار الفائقة ، والفنون المتنوعة » [١] .

* قال ابن تغرى بردى : « لولا أنّه كان راضيا بشعره ؛ لكان يندر له الردىء ، ويكثر منه الجيّد ؛ فإنّه كان غوّاصا على المعانى ، مبتكرًا للنكت البديعة ، عارفا بفنون الأدب ، وعندما يعارض بعض من تقدّمه من مجيدى الشعراء ، فى معنى من المعانى اللطيفة ينظم بيتين ، يجيد فيهما ، ثم ينظم - أيضا - فى ذلك المعنى بعينه ، بيتين آخرين ، ثم بيتين ، ثم بيتين ، ولا يزال ينظم فى ذلك المعنى ، إلى أنْ يملّه النظر ، وتسأمه النفس ، ويمجّه السمع ، فلو ترك ذلك ، وتحرّى القصد فى قريضه لكان من الشعراء المجيدين ؛ لقوّة شعره ، وحسن اختراعه » [٢] .

* قال ابن معصوم : « كم له من نثر وشعر هما من سحر البيان أو بيان السحر » [٣] .

* قال الخَوَانْسَارى : « لهذا كان شعره فى غاية الجودة والجمال وقوّة تمييزه من أرفع قوى شعراء الأصقاع » [٤] .

الخصائص الفنية لشعر الصفدى

الصفدى من كبار شعراء عصره المجيدين ، ومن أغزرهم شعرا ، ومن أكثرهم أغراضا ؛ ولم يكن إعجاب الصفدى بنفسه ، وبشعره هما - وحدهما - سبب وقوعه فى النظم الركيك ، بل يضاف إلى ذلك كثير من قيود الصنعة ألزم بها نفسه ، وحاول - بالرغم من ثقل قيوده - النهوض ، والسموّ ، وسعى إلى مجاراة الفحول المطبوعين ، فمن تلك القيود :

١ - لزوم ما لا يلزم ، وإنَّه ليباهى به ، ويقول : « وغالب ما أُنْشِئُه أنا إنَّما آتى به ملزوما » [٥] ، كقوله [٦] :

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٢ .
(٢) المنهل الصافى ٥ / ٢٤٣ .
(٣) أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .
(٤) روضات الجنات ٧١٧ .
(٥) نصرة الثائر على المثل السائر ١٥٧ .
(٦) صرف العين ١٢١ / ب مخطوط العمومية .

جَدَّ الهَوَى بِالشَّجِيِّ المُعَنَّى وَأَنْتَ هَازٍ بِهِ ، وهَازِلْ
وَحَرْبُ عَيْنَيْكَ فِى سَطَاهَا تَعْلُو الثُّرَيَّا ، فَمَنْ يُنَازِلْ ؟
فَاكْفُفْ سِهَامَ الجُفُونِ عَنِّى فَأَنْتَ غَازٍ لِمَنْ تُغَازِلْ

٢ - الجناس الملفّق ، ويكون كُلٌّ من ركنيه مركَّبًا من كلمتين ، فصاعدًا ، كقوله [١] :

مَتَى تَصْنَعِ المَعْرُوفَ تَرْقَ إِلَى العُلاَ وَتَلْقَ سُعُودًا فِى ازْدِيَادِ سُعُودِ
وَإِنْ تَغْرِسِ الإِحْسَانَ تَجْنِ الثِّمَارَ مِنْ مَغَارِ سُعُودٍ ، لاَ مَغَارِسِ عُودِ

وكان الصفدى يكثر من الجناس فى شعره ؛ حتى أتى فيه بالركيك السخيف ، وأطلق فيه لسان خصومه ، وقد نسبه ابن حجة إلى مذهب فنّى مخالف لمذهبه ، قال [٢] : « ما أظرف ما وقع له - يعنى : الصفدى - مع الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وذلك أنَّه لمَّا وقف على كتابه المسمّى بـ « جنان الجناس » ، وقد اشتمل على كثير من هذا النوع قرأه « جنان الخُنَاس » ، وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه ، وهذا مما يؤيّد قولى : أنَّه غير مذهبى ، ومذهب من نسجت على منواله » .

وأكّد هذا القول ، مع بيان السبب ، فقال : « أمَّا الجناس ، فإنّه غير مذهبى ، ومذهب من نسجت على منواله ، من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ؛ فإنَّ كلا منهما يؤدى إلى العقادة ، والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة ، فى مضمار المعانى المبتكرة » [٣] .

ولم يكن مذهب الصفدى التجنيس - وإن أكثر منه - كما زعم ابن حجّة ، بل كانت التورية أخص صفات مذهبه الفنى كما اتّضح لى من أكثر شعره ، وكما سأثبته ، بعد .

٣ - التضمين ، وهو من الظواهر الشائعة فى عصره ، كقوله [٤] :

---

(١) أنوار الربيع ١ / ١٢٧ .
(٢) خزانة الأدب ١ / ٥٦ .
(٣) خزانة الأدب ١٢ / ٥٤ .
(٤) صرف العين ٧٣ / أ ، وفى البيتين تضمين لقول الشاعر :
وَمَاذَا عَسَى الوَاشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا سِوَى أَنْ يَقُولُوا : إِنَّنِى لَكِ عَاشِقُ
والبيت للمجنون فى ديوانه ٢٠٣ ، ولجميل فى ديوانه ١٤٣ .

أيَا مَنْ سَبَانِى ، كُفَّ جَفْنَكَ عَنِّى إنَّهُ
غَدَا فِى صَمِيمِ القَلْبِ بِالسِّحْرِ يَنْفُثُ
وَدَعْنِى وَمَا قَالَ الوُشَاةُ ، وَنَمَّقُوا
« فَمَاذَا عَسَى الوَاشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا ؟ »

وقد يجمع فى شعره بين التضمين ولزوم ما لا يلزم ، كقوله [١] :

يَا لاَئِمِى فِى سُكْرِ أَشْجَانِى وَلِى مِنْهَا غَبُوقٌ دَائِمٌ وَصَبُوحُ
نَظَرُ الحَبِيبِ إذَا طَلَبْتُ وِصَالَهُ وَهُوَ العَدُوُّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ

٤ - نظم المصطلحات العلمية ، والتورية بأسماء الكتب ، وأعلام الرجال ، وغير ذلك مما هو شائع بين شعراء عصره ، كقوله [٢] :

وَظَبْيِ مَعَانِيهِ بَيَانٌ ، بَدِيعُهَا نَهٌ حَارَ فِكْرِى إذْ رَأى كُلُّ مُعْجِزِ
قَرَأْتُ مَقَامَاتِ الحَرِيرِىِّ كُلَّهَا بِعَارِضِهِ مَشْرُوحَةً لِلْمُطَرِّزِى

٥ - رغبته الشديدة فى الإكثار جعلته يرضى بالأشياء الرخيصة ، ويأتى بما يعيب [٣] .

٦ - مناصبه الرسمية ، وارتباطه بالأمراء ، والملوك فرضت عليه أنْ يكتب فى كل مناسبة ، وينظم فى كل وقت ، ولو لم تحرِّكه عاطفة قوية ، أو يثيره إحساس صادق ؛ ولذلك جاء كثير من شعره باردا ، لا يعبِّر عن تجربة صادقة .

وإذا رجع الصفدى إلى حسّه الفنى ، ونفسه الصافية ، وساير طبعه ، وفنّه ، وابتعد عن تلك القيود ، ونظم على سجيّته أبدع ، وبرع ، وأجاد ، بل ربّما تفوّق على كثير من شعراء عصره ، والدليل على ذلك أنَّ ابن حجَّة - وهو أشد أعدائه

---

(١) صرف العين ٧٦ / أ ، وفى البيتين تضمين لقول المتنبى ، والبيت فى ديوانه ٦٢ :

يُخْفِى العَدَاوَةَ ، وهْىَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ نَظَرُ العَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ٢ / ١٥٧ .

والمُطَرِّزى هو : أبو الفتوح ، ناصر بن عبد السيّد ، برهان الدين ، الخوارزمى ، الحنفى (٥٣٨ - ٦١٠ هـ) عالم ، أديب ، له شرح مشهور على مقامات الحريرى ، انظر : الأعلام ٧ / ٣٤٨ ، ومعجم المؤلفين ١٣ / ٧١ .

(٣) خزانة الأدب ، لابن حجة ٢ / ١٦٦ .

عليه ، وأكثرهم شنآنا ، وحسدًا له - أورد له إحدى وستين نتفة شعرية ، فى باب التورية وحده [١] ، ولم يملك إلاّ الإعجاب ببعضها ، من مثل قوله تعليقا على بيتى الصفدى :

أَقُولُ ، وَحَرُّ الرَّمْلِ قَدْ زَادَ وَقْدُهُ وَمَا لِى إِلَى شَمِّ النَّسِيمِ سَبِيلُ

أَظُنُّ نَسِيمَ الجَوِّ قَدْ مَاتَ ، وانْقَضَى فَعَهْدِى بِهِ فِى الشَّامِ وَهْوَ عَلِيلُ

قال ابن حجة [٢] : « النسيم العليل تلاعبوا به كثيرا ، ولكنَّ قول الصفدى « فَعَهْدِى بِهِ فِى الشَّامِ وَهْوَ عَلِيلُ » فى غاية اللطف .

ومن كثرة ما رواه ابن حجّة ، فى باب التورية ، من شعر الصفدى يظهر لنا مذهبه الفنى ؛ فقد كان شديد الإعجاب بشعر شيخ الشيوخ ، وطريقته ، قال [٣] : « لا أعرف ، فى شعراء الشام ، من بعد الخمسمائة ، وقبلها مَنْ نظم أحسن منه ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أصنع ، ولا أسرى ، ولا أكثر ؛ فإنَّ له « لزوم ما لا يلزم » مجلّد كبير ، وما رأيت له شيئا إلاّ وعلقته لما فيه من النكت ، والتوريات القاعدة ، والقوافى المتمكّنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفسيح ، والمعنى البليغ » .

وكلام ابن حجّة عن الجناس ، وثقله هو نفسه كلام الصفدى « فإنَّ تكرار الحروف على اللسان بالثقل ، والخفّة أعقد ، ويحتاج إلى إحضار الذهن ؛ لئلا يقع التحريف ، وينطق بالأول كالثانى ، وعكسه ، فإنْ قلت : هذا يرد على باب الجناس كله ، وهو معدود من البديع ، قلت : الجناس ، وإنْ كان من أنواع البديع لكن بعض صوره مستثقل » [٤] .

وكلام ابن حجّة هو نفسه كلام الصفدى فى التورية « فهما يتّفقان على أنَّ التورية من أعلى فنون البديع ، وأغلاها رتبة وأعظمها فى الأذواق السليمة موقعا ، ويتفقان على أنَّ الاستخدام أشرف من التورية ، وأقلّ ورودا فى الكلام منها ، وقلّ من

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢) نفسه ٢ / ١٥٩ .

(٣) انظر : الوافى ١٨ / ٥٤٧ .

(٤) الغيث المسجم ٢ / ٦٣ .

البلغاء من تكلّفه ، وصحّ معه بشروطه ؛ لصعوبة مسلكه وشدّة التباسه بالتورية ؛ لأنّه يحتاج إلى لطف ذوق ، وحدّة ذهن ، وتوقّد فكر » [١] .

ويتّضح من كلام ابن حجّة عن الجناس ، وأنّه ليس مذهبه ، ولا مذهب شيوخه من أهل الأدب ، وإنّما هو مذهب الصفدى ، يتضح أنّه مجرد مناسبة للنيل من الصفدى ، والحط من قدره ، دون دليل ، ونحن عندما نقرأ شعره نجده لا يعير « الجناس » أهميّة كبيرة وأنّ ما جاء منه فى شعره هو الجناس المركّب ، أو الملفّق ، ويبدو لى أنّ سبب إكثاره من هذا النوع كان رياضة عقلية ، وتدريبا على مهارات النظم ، وجّهه إليه شيخه أبو الثناء محمود ، قال الصفدى [٢] : « لمّا قرأت عليه قوله فى كتاب « حسن التوسل » :

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ نَشْرِ الرَّوْضِ لَمَّا ... تَلاقَيْنَا ، وَبِنْتَ العَامِرِيِّ

جَرَى دَمْعِى ، وَأَوْمَضَ بَرْقُ فِيهَا ... فَقَالَ الرَّوْضُ : فِى ذَا العَامِ رِيِّى

أخذت فى الزّهزهة [٣] لما فى هذين البيتين من الجناس المركب ، وبالغت فى الثناء عليهما ، فقال لى : خُذْ نفسك بنظم شىء فى هذه المادة ، فامتنعت ، فقال : لا بدّ من ذلك ، فغبت عنه يومى ، وجئته فى اليوم الثانى ، وأنشدته لنفسى ، فى هذه المادة :

بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ اعْمَلْ تُحَقِّقْ ... مُنَاكَ ، فَمَا تَرَى كَالشَّافِعِيِّ

فَكَمْ فِى صَحْبِهِ مِنْ بَحْرِ عِلْمٍ ... وَمِنْ حَبْرٍ وِمِنْ كَشَّافِ عِيِّ

فقال : حسن ، وعَجَّبَ بهما الحاضرين . ثم قال : إلاّ أنّ قافيتى أنا رائيّة ، فغبت عنه يومى ، وأتيته فى غد ، وأنشدته لنفسى :

أَرَى فِى الْجُودَرِيَّةِ ظَبْيَ إِنْسٍ ... فَيَا شَغَفِى بِهِ مِنْ جُودَرِيِّ

لِبَارِقِ فِيهِ سَحَّتْ سُحْبُ دَمْعِى ... فَقَالَ الرَّوْضُ : إِنَّ الجُودَ رِيِّى

وأنشد مقطوعة رائيّة أخرى غير مؤسسة ؛ فطلب إليه أبو الثناء محمود بعد القافية

---

(١) راجع : مقدمة فض الختام ٩٩ .

(٢) راجع : أعيان العصر ٥ / ٣٧٩ - ٢٨١ .

(٣) زهزه : استحسن ، أو صفّق بيديه . انظر : Dozy : Supp. dict. Arab. V.I, P. 609.

الرائية ، أنْ ينظم فى قافية مؤسسة ، ثم ينظم فى غرض الغزل ، بدلا من المديح ، وهكذا ، وفى كلّ مرّة ينشده الصفدى ما طلب ؛ فيبدى إعجابه بما يسمع من نظمه ، فى الجناس المركّب ، فكتب مقاطيع كثيرة ، فيه ، جاء فيها بالغث أكثر من السمين ، مما أطلق فيه لسان حاسديه ، فقال فيه البدر البشتكى قولته السابقة [١] ، وتصدّى له ابن معصوم يدافع عنه ، ويلتمس عذرا للصفدى بأنّ الجناس الملفّق من أصعب أنواع الجناس مسلكا ، ولا يلزم من ركاكة هذا المقدار من نظمه انحطاط مقدار الناظم [٢] .

نحن وإنْ كنا لا نقبل بعذر ابن معصوم ؛ لأنّ التكلّف مذموم فى حدّ ذاته ، والنظم الركيك لا عذر لناظمه ؛ فما أرغمه أحد عليه ، لكنّ الرأى المقبول - كما سبق القول - إنّ هذا النوع من النظم كان رياضة ذهنية ، وتدريبا تعليميا ، وليس تعبيرا شعريا عن معنى أراده الشاعر .

أغراض شعره

أكثر النقاد من محاولة إحصاء المعانى والأغراض التى يتناولها الشعراء فى شعرهم [٣] ، ومما لا شكّ فيه أنّ شعراء العصر المملوكى قد نظموا فيما نظم فيه الشعراء السابقون ، وابتكروا أغراضا لم تكن معروفة ، من قبل ، وفى تقسيم الصفدى شعره إلى مجموعة من الأغراض جعلها ٤٧ موضوعا ، فى كتابه « الروض الباسم والعرف الناسم » وسأقدم اختيارات منه تظهر أغراضه ، وأضيف إليها ، من كتبه الأخرى مالم يمثّل له فى كتابه هذا .

أولا : المدح ، وهو أنواع ، منها :

١ - المدح النبوى : وهو من أكثر الأغراض الشعرية شيوعا فى ذلك العصر ،

---

(١) انظر : صفحة ٢٣٤ من هذا البحث .

(٢) أنوار الربيع ١ / ١٢٨ .

(٣) جعلها بعضهم عشرة ، بناء على تبويب أبى تمّام فى الحماسة ، وجعلها بعضهم ثمانية عشر بناء على تقسيم ابن أبى الإصبع .

راجع : آفاق الشعر العربى فى العصر المملوكى ١٠١ - ١٠٢

بل إنَّ من الشعراء من أفرد له ديوانا خاصا ، ومما قاله الصفدى فى مدح رسول الله ﷺ معارضا كعب بن زهير رضى الله عنه قصيدة أوّلها [١] :

سَلُوا الدُّمُوعَ فَإنَّ الصَّبَّ مَشْغُولُ
وَلاَ تَمَلُّوا ؛ فَفِى إمْلائِهَا طُولُ
وَاسْتَخْبِرُوا صَادِحَاتِ الأَيْكِ عَنْ شَجَنِى
هَلْ فِى الغَرَامِ الَّذِى تُبْدِيهِ تَبْدِيلُ ؟

وفى تخلُّصها يقول :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا ، بَرِّدْ لَظَى كَبِدِى فَإنَّ ذَيْلَكَ بِالأَنْدَاءِ مَبْلُولُ
وَاحْمِلْ رَسَائِلَ أَشْوَاقِى لِطِيبَةَ لا زَالَتْ تُحَثُّ لَهَا النُّجْبُ المَرَاسِيلُ
سَلِّمْ عَلَى رَبْعِهَا المَحْرُوسِ إنَّ لَهَا مَجْدًا لَهُ بِرَسُولِ اللهِ تَأْثِيلُ
مُحَمَّدٍ خَيْرِ مَبْعُوثٍ لأُمَّتِهِ فِى الحَشْرِ ، وَالنَّشْرِ تَقْدِيمٌ ، وَتَفْضِيلُ
سَادَتْ قُرَيْشٌ بِهِ الأَعْرَابَ قَاطِبَةً فَكَمْ لَهَا مِنْهُ تَنْوِيهٌ ، وَتَنْوِيلُ

وهى قصيدة طويلة فى ٦٦ بيتا ، ولم تخرج معانيه فيها عمّا جاء فى قصيدة كعب الشهيرة ، وما جاء فى بردة البوصيرى ، وتدور تلك المعانى حول قِدَم نبوّته ﷺ ، وتبشير الأنبياء به ، وانشقاق إيوان كسرى عند مولده ، وانطفاء النار المقدسة فى معابد الفرس ونزع الملائكة من قلبه موضع نزغ الشيطان ، وتعرّف الراهب بحيرى على علامات نبوّته ، وتنبيه عمّه إلى ضرورة الحفاظ عليه ، وتحنّثه فى غار حراء ، وبدء نزول الوحى ، ووصف القرآن الكريم حبل الله المتين ، وبلاغته ، وإعجازه ، وتحدّيه فصحاء العرب ، وجهره بدعوة الحق ، وجهاد المشركين ، وصفات صحابته الكرام ورفعهم لواء الدين ، إلى أن ظهر على الأديان كلّها ، ثم يختم قصيدته بإبداء الرغبة فى زيارة قبر الرسول ﷺ ، والتضرّع إلى الله بأنْ يكون شفيعا له ؛ فقد أثقلته الذنوب ، ولا رجاء له إلاّ الشفاعة .

وهذا المديح النبوى نابع من قلب صاف ، وعاطفة نقيّة ، « فالشاعر أمام النبى ﷺ لا يطلب وظيفة ، ولا جائزة ، ولا جاها ولا عطفا أو محاباة مما عرفه ديوان

---

(١) الوافى بالوفيات ١ / ٩٤ .

المدح العربى ، بل ينشد راحة الضمير ، ورضا الله ، ورسوله ، وصحابة رسوله ، وأهل بيته ؛ لينعم بسعادة الدين والدنيا ، ويتمّ أركان كتابته ، ونظمه » [١] .

وبالرغم من أنَّ الصفدى كان مرددا لأقوال السابقين ، متتبعا لمعانيهم ، مقيّدا بأسلوبهم ، ومع ذلك نلاحظ على مدحه النبوى أمرين :

الأول : ظهور أثر ثقافته الواسعة ، فى دراسة السيرة النبوية ، والحديث الشريف ، من مثل قوله :

كُلٌّ يَجِىءُ ، وَآثَارُ الوُضُوءِ لَهَ فِى حَشْرِهِ غُرَّةٌ زَانَتْ ، وَتَحْجِيلُ
أَعْمَالُهُمْ تُشْبِهُ التِّيجَانَ فَوْقَهُمُ لَهَا الْهُدَى ، وَالتُّقَى ، وَالعِلْمُ إكْلِيلُ

والثانى : خلو تعبيره من جميع صور المحسنات ، والصنعة ، واكتفاؤه بالتعبير السلس ، الواضح ، مع ظهور لمحة فنيّة فى تعبيره الشعرى الراقى ، من مثل قوله :

وَقَامَ فِى اللهِ أَقْوَامٌ إذَا ذُكِرُوا يَوْمَ الْوَغَى فَهُمُ الغُرُّ الْبَهَالِيلُ
وَافَوْا يُلَبُّونَهُ طَوْعًا ، فَقَابَلَهُمْ مَعَ الْهُدَى مِنْهُ تَرْحِيبٌ ، وَتَأْهِيلُ

ومن شعره معارضته للقصيدة الشهيرة ، لابن الخيمى [٢] التى مطلعها [٣] :

يَا مَطْلَبًا لَيْسَ لِى فِى غَيْرِهِ أَرَبُ إلَيْكَ آلَ التَّقَصِّى ، وَانْتَهَى الطَّلَبُ

وهى قصيدة شهيرة ، ادّعاها ابن إسرائيل لنفسه [٤] ، واحتكم فيها الشاعران إلى

---

(١) آفاق الشعر العربى ١١٧ .

(٢) أبو عبد الله ، محمد بن عبد المنعم بن محمد ، شهاب الدين ، الأنصارى (٦٠٢ - ٦٨٥هـ) شاعر ، أديب ، متصوف . انظر : ذيل مرآة الزمان ٤ /٣٠٠ ، وملء العيبة ٣ / ١٩١، والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣٠٦ ، وتذكرة النبيه ١ / ١٠٦ ، وعقد الجمان ٢ / ٣٥٦ ، والمقفى الكبير ٦ / ١٤٣ ، وشعراء الصوفيّة المجهولون ٨٣ ، والأعلام ٦ / ٢٥٠ .

(٣) الوافى بالوفيات ٤ / ٥١ ، وفوات الوفيات ٣ / ٤١٦ .

(٤) أبو المعالى ، محمد بن سوّار بن إسرائيل ، نجم الدين ، الشيبانى (٦٠٣ - ٦٧٧ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : ذيل مرآة الزمان ٣ / ٤٠٥ ، وعيون التواريخ ٢١ / ٢٠٥ ، وعقد الجمان ٢ / ٢٠٩ ، وتاريخ ابن الفرات ٧ / ١٣١ والمقفى الكبير ٥ / ٧٠٨ ، ودائرة معارف إفرام البستانى ٢ / ٣٣٥ ، وشعراء الصوفيه المجهولون ٦٩ ، والأعلام ٦ / ١٥٣ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٥٨ .

ابن الفارض [١] ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم : ابن الخيمى نفسه ، وابن إسرائيل ، والتلمسانى [٢] ، وأبو الثناء محمود ، والصفدى ، ومطلع قصيدته :

يَا جِيرَةً مُذْ نَأَوْا ، قَلْبِى بِهِمْ يَجِبُ وَلَوْ قَضَى مَا قَضَى بَعْضَ الَّذِى يَجِبُ

وهى قصيدة فى ٣٣ بيتا ، ليست فى مستوى ما سبقها من القصائد ، وهو نفسه اعترف بذلك ، فقدّم لها بقوله : « وقلت أنا فى هذه المادّة ، وإنْ لم أسلك الجادّة » ، والقصائد كُلُّها من الغزل الصوفى الذى سمّاه الدكتور يا سين الأيوبى « المدح الإلهى » الذى يدور - كما يقول - على التسبيح ، والعبادة ، والزهد فى الحياة الدنيا ، والعمل الصالح ذخرا ليوم المعاد والحساب [٣] ، واختار أبياتا للصفدى علّق عليها بقوله : « التكلّف باد فيها ... لكنّها رغبة الشاعر - ومعه عدد من معاصريه - فى مجاراة بعضهم البعض ، وركوب المركب نفسه ، إمَّا غيرة ، وإمَّا إحساسا بالتّفوّق ، أو غير ذلك مما يجرى فى ظروف ، وموضوعات مشابهة » [٤] .

وفى معارضة الصفدى لقصيدة ابن الخيمى نجد كثيرا من أبياتها تفيض رقّةً ، وعذوبة ، وتخلو من التكلّف ، وتعبّر عن حبٍّ صادق ، وعاطفة سامية ، كقوله [٥] :

بِاللهِ يَا صَاحِ ، رَوِّحْنِى بِذِكْرِهِمُو
وزِدْ ، عَسَى أَنْ يَخِفَّ الْوَجْدُ ، وَالْوَصَبُ
وَيَا رَسُولِى إِلَيْهِمْ ، صِفْ لَهُمْ أَرَقِى
وَإِنَّ طَرْفِى لِضَيْفِ الطَّيْفِ مُرْتَقِبُ

---

(١) أبو حفص ، عمر بن على بن مرشد ، شرف الدين ، سلطان العاشقين (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : تكملة إكمال الإكمال ٢٧٠ والنجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ٣٠٥ ، وحسن المحاضرة ١ / ٥١٨ ، والكنى والألقاب ١ / ٣٧٤ ، والأعلام ٥ / ٥٥ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٣٠١ .

(٢) أبو الربيع ، سليمان بن على بن عبد الله ، الكوفى ، عفيف الدين (٦١٠ - ٦٩٠ هـ) شاعر ، متصوف . انظر : الوافى بالوفيات ١٥ / ٤٠٨ ، والكنى والألقاب ٢ / ١٢٢ ، والأعلام ٣ / ١٣٠ ، ومعجم المؤلفين ٤ / ٢٧٠

(٣) آفاق الشعر العربى ١٣٣ .

(٤) نفسه ١٣٧ .

(٥) الوافى بالوفيات ٤ / ٥٩ - ٦٠ ، وأعيان العصر ٥ / ٢٨٥ .

وَاسْأَلْ مَوَاهِبَهُمْ لِلْعَيْنِ بَعْضَ كَرًى
عَسَاىَ أَنْ يَهَبُوا لِى بَعْضَ مَا نَهَبُوا
وَلَطِّفِ القَوْلَ ، لاَ تَسْأَمْ مُرَاجَعَةً
وَاشْكُ الهَوَى وَالنَّوَى ، قَدْ يَنْجَحُ الطَّلَبُ
عَرِّضْ بِذِكْرِى ، فَإِنْ قَالُوا : أَتَعْرِفُهُ ؟
فَاسْأَلْ لِىَ الوَصْلَ ، وَانْكِرْنِى ، إِذَا غَضِبُوا
ذَكِّرْهُمُو بِلَيَالٍ قَدْ مَضَتْ بِهِمُو
وَهُمْ نُجُومِى بِهَا ، لا السَّبْعةُ الشُّهُبِ

والمعنى فى هذه الأبيات مشهور ، تداوله الشعراء من قبل الصفدى ، وقد أشار إلى ذلك ، وبيّن أصل المعنى [١] .

٢ – المدح السياسى والاجتماعى : وقد قسّمه الدكتور ياسين الأيوبى نوعين [٢] :

أحدهما المدح المناقبى ، وعرّفه بقوله : « هو الذى اتّجه به الشعراء نحو قيم الناس ، والمجتمع ، والأفراد من أعيان ، وأصدقاء وشيم خلقية مأثورة » ، وجدير بالذكر أنّ الصفدى قد سمّى هذا النوع « المدح الموجّه » [٣] ، وهو تعريف لا بأس به ، وأفضل من تعريف الأيوبى لأنّ المناقب شركة فى كل أنواع المدح ، لا يختصّ بها نوع دون آخر ، وفى رأيى أنّ أفضل تسمية لهذا النوع من المدح « المدح التصويرى » ذلك لأنّ الشاعر يصوّر الممدوح فى صورة متفردة ، يبيّن فيها ملامح الوجه ، وتركيب الجسم ، ولوازم الحركة ، وطريقة السلوك ، والحالة النفسية والخلقية ، والمهنيّة ، بحيث لو سمع شخص هذا الوصف ، وكان يعرف الممدوح معرفة شخصية لعرف أنّه المقصود به ، وإنْ لم يُذْكَر له اسمه ، فهو أشبه بالصورة

---

(١) الوافى بالوفيات ٢ / ٥٥ – ٥٦ ، من الشعراء الذين ألمّوا به الوأواء الدمشقى ، وأصل المعنى لعمر بن أبى ربيعة فى قوله :

فَأَتَتْهُ طَبَّةٌ عَالِمَةٌ تَمْزِجُ الجِدَّ مِرَارًا بِاللَّعِبْ
تُغْلِظُ القَوْلَ إِذَا لاَنَتْ لَهَا وَتَرَاخَى عِنْدَ سَوْرَاتِ الغَضَبْ

(٢) آفاق الشعر العربى ١٠٤ – ١٠٧ .

(٣) الروض الباسم « مخطوط تونس » وكل إحالة هنا عليه ٦٠ / ب .

المرسومة ، أو « الفوتوجرافية » للممدوح ، يندر أنْ تتشابه مع غيرها ، ويستحيل تطابقها ، ولم يظهر هذا النوع من المدح إلاّ فى العصور المتأخّرة ، وبرع فيه الصفدى بصفة خاصة .

والآخر : المدح السياسى ، وعرّفه بقوله : « هو غزل من نوع آخر ينظمه الشاعر فى محاسن الممدوح ، وأوصافه ، ومنجزاته الاجتماعية ، والدينية ، والعسكرية ، وأكثر ما يكون فى الملوك ، والأمراء ، والقوّاد ، والقضاة ، من ذوى النفوذ ، وتقرير المصير على مختلف الصعد ..... إنّ غالبية المِدَح التى قيلت فى الملوك متشابهة ، فيما بينها ، ولا سبيل إلى تمييزها إلاّ بشىء من المعانى الشكلية التى تعود للحسب ، والنسب ، وبعض الأحداث الواقعة فى عهده » ، وقد نظم الصفدى فى النوعين .

فمن النوع الأول :

كتب إلى أثير الدين أبى حيّان [١] :

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مِنْ دَهْرِى جَنَاحَيْنِ ... لَطِرْتُ ، لَكِنَّهُ فِيكُمْ جَنَى حَيْنِى

يَا سَادَةً ، نِلْتُ فِى مِصْرٍ بِهِمْ شَرَفًا ... أَرْقَى بِهِ شُرَفًا تَنْأَى عَنِ العَيْنِ

وَإِنْ جَرَى لَسَمَا كِيوَانَ ذِكْرٌ عَلاَ ... أَحَلّنِى فَضْلُهُمْ فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ

وَلَيْسَ غَيْرُ أَثِيرِ الدِّينِ أَثَّلَهُ ... فَسَادَ مَاشَادَ لِى حَقًّا بِلاَ مَيْنِ

حَبْرٌ ، وَلَوْ قُلْتُ : إِنّ الْبَاءَ رُتْبَتُهَا ... مِنْ قَبْلُ ، صَدَّقَكَ الأَقْوَامُ فِى ذَيْنِ

أَحْيَا عُلُومًا أَمَاتَ الدَّهْرُ أَكْثَرَهَا ... مُذْ جُلِّدَتْ خُلِّدَتْ بَيْنَ دفَّيْنِ

إلى آخر الأبيات التى يبيّن فيها ما شهر به أبو حيّان من تدريس كتاب سيبويه ، وتفرّده بالعلوم ، فى عصره ... [٢] .

ومن النوع الثانى : قال فى مدح الملك الناصر محمد بن قلاوون [٣] :

بِعِزِّ نَصْرِكَ أَضْحَى الدَّهْرُ يَتَبَسِمُ ... وَعَنْ رَعَايَاكَ وَلَّى الظُّلْمُ ، وَالظُّلَمُ

---

(١) أعيان العصر ٥ / ٣٣٧ .

(٢) راجع ما وصف به ابن سيد الناس فى (أعيان العصر ٥ / ٢٢٣) ، وابن القيسرانى فى (أعيان العصر ٥ / ٥٥٧) ..

(٣) نفسه ٥ / ١٠٢ .

يَا نَاصِرَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَيَا مَلِكًا ذَلَّتْ لِعِزَّتِهِ فِى أَرْضِهَا الأُمَمُ
أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ أَهْلِ الأَرْضِ قَاطِبَةً سَارَتْ بِأَنْبَائِكَ الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ

ويستمر فى قصيدته فيبيّن سعى الناس فى خدمته ، وأنّ الملوك تخاف بأسه ، والأسود تخشاه ، ثم يصفه بالكرم ، والحلم ...

ثانيا : الرِّثَاء :

وهو من الأغراض القديمة ، بل لعلّه أقدم أغراض الشعر مطلقا[1] ، وهو أكثر أغراض الشعر صدق عاطفة ، وحرارة إحساس ؛ لأنّه فى الغالب يظهر عجز الإنسان أمام غلبة الموت ، ويعبّر عن لوعة الألم أمام مصيبة الفقد ، وشدّة الحزن لفراق الأحباب ، وتنوّعت موضوعاته ، بحسب الأحوال ، والظروف ، فمن رثاء العظماء ، إلى رثاء الأهل ، والأصحاب ، إلى رثاء الدول والممالك ، وكان للصفدى دووين كاملة فى الرثاء – فقد سبق أنّ بينت أنّ له كتاب « ساجعات الغصن الرطيب » الذى جمع فيه مراثى شيخه نجم الدين الصفدى ، ولمّا مات أخوه إبراهيم فى سنة ٧٤٢ هـ ، رثاه بقصائد ومقاطيع كثيرة[2] ، ذكر منها قصيدة ، و٢٦ مقطوعة ، وأول قصيدته :

إِذَا لَمْ يَذُبْ إِنْسَانُ عَيْنِى ، وَأَجْفَانِى عَلَيْكَ فَمَا أَقْسَى فُؤَادِى ، وَأَجْفَانِى
رَحَلْتَ بِرَغْمِى يَا أَخِى ، وَتَرَكْتَنِى وَحِيدًا أُقَاسِى فِيكَ أَحْزَابَ أَحْزَانِى
وَحَلَّ بِكَ الأَمْرُ الَّذِى جَلَّ خَطْبُهُ لَقَدْ بَلَّ أَرْدَانِى بِدَمْعِى ، وَأَرْدَانِى

وإنّك لتحس بهذا الحزن العميق الذى يفتّت الأكباد ، ويقطّع القلوب ، وإنّك لتحس بأنّ الجناس فى هذه الأبيات وَظَّفَ الكلمات لإثراء المعانى فى تصوير الأسى الذى يُفْقِدُ المرء اتّزانه ؛ ويفقده الإحساس بتمايز الأشياء ، فقد تساوى الموت والحياة ، والتقت الأحزاب والأحزان ، وتعاونت الأردان والأرداء .

وليس من أهداف هذا البحث دراسة شعر الصفدى بعامة ، ولا الرثاء بخاصّة ؛ بل اكتفى هنا بالإشارة إلى أنّ الرثاء عنده موضوع خصب لدراسة علمية جيّدة ، وقد

---

(١) من الطرائف أنّ مؤرخى العرب يروون أبياتا رثى فيها سيدنا آدم عليه السلام ابنه هابيل ، لمّا قتله أخوه قابيل ، ويروون الخبر عن الإمام على – رضى الله عنه – وممّا لا شكّ فيه أنّه من وضع القُصَّاص ، والوعّاظ . راجع : الكامل فى التاريخ ١ / ٢٧ .

(٢) راجع : الوافى بالوفيات ٥ / ٣٣٢ – ٣٣٧ .

سبق الحديث عن رثائه موتى الطاعون المعروف بالطاعون الأسود الذى اجتاح البلاد فى سنة ٧٤٩ هـ ، وذكرت ما امتاز به رثاؤه من الدّقة التصويريّة [١] ، وبلاغة التعبير ، وعندما دخل الطاعون صفد قال [٢] :

« أجنى عليها الذى أجنى ، فما ترك بها أحدًا من الأهل ، والمعارف حتى اجتحفه سيله الجارف ، فكم من صاحب جاءنا ناعيه ، ودعاه إلى البلى منه داعيه ، فقال المملوك :

لِمَ افْتَرَسْتَ صِحَابِى ... يَا عَامَ تِسْعَ ارْبَعِينَا ؟
مَا كُنْتَ ، وَاللهِ تِسْعًا ... بَلْ كُنْتَ سَبْعًا يَقِينَا

ويذكر أكثر من عشر مقاطيع فى وصف الطاعون ، وينهى مقالته بوصف الحال فى دمشق « وأفرط الأمر ؛ حتى كادت دمشق تخلو من أربعة أركانها ، وعمّت الوحشة ، ومحا الأنس من كل دار نفسه ... » .

ورثاؤه للمدن التى خَرّبها الطاعون ، وخيّم عليها الخراب ناطق بحرقة الفقد ، ولسع النار التى ألهبها الدّمار ، وإنّك لتسمع فى شعره أنين الثكالى ، وبكاءهن ينبعثان فى كل بيت ، ودار ، وانظر كيف واجه الشاعر الذى اعتاد الصبر وتحمل الشدائد هذا المصاب الفادح بعتاب يائس ، وسؤال مكلوم :

لِمَ افترست صحابى ياعام تسع اربعين ؟

ومن سمات الرثاء عند الصفدى - كما فى مدحه - ما يمكن أنْ نسميه - أيضا - « الرثاء التصويرى » الذى يرسم فيه صورة للفقيد تبيّن قسمات الوجه ، وشكل الجسم ، والصفات الخِلْقِيَّة والخُلُقِيَّة والنفسية ، وغيرها من العلامات التى تميّز فردا من فرد ، واقرأ رثاءه لابن ريّان [٣] ، الذى كان يقوم الليل ، ويركع قبل الفجر قريبا من

---

(١) راجع صفحة ٣١١ من هذا الكتاب .

(٢) ديوان مراسلات الصفدى « مخطوط دار الكتب المصرية » ٤٣ .

(٣) سليمان بن أبى الحسن ، جمال الدين (٦٦٣ - ٧٤٩ هـ) ناظر الجيش فى حلب ، عابد ، زاهد ، مولع بكتابة القرآن الكريم بخطه الجميل ، وتذهيبه .

انظر : أعيان العصر ٢ / ٤٢٦ ، والوافى بالوفيات ١٥ / ٣٦٧ ، وتذكرة النبيه ٣ / ١٢٥ ، والدرر الكامنة ٢ / ١٤٥ ، والمنهل الصافى ٦ / ١٧ .

عشرين ركعة ، وله فى كل أسبوع ختمة ، يقرؤها هو وأولاده ، ويصوم فى غير رمضان ، قال [١] :

مَنْ لِلظَّلامِ إذَا نَامَ الأنَامُ غَدَا
« يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا ، وَقُرْآنَا ؟ »
وَمَنْ لِمِحْرَابِكَ الزَّاكِى ، فَلَيْسَ يَرَى
مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ فِيهِ قَطُّ إنْسَانَا ؟
كَمْ قَدْ خَتَمْتَ كِتَابَ اللهِ مُتَّعِظًا
وَفِى تَدَبُّرِهِ كَمْ رُحْتَ وَلْهَانَا
وَكَمْ حَثَثْتَ الخُطَا نَحْوَ الصَّلاةِ لأَجْـ
ـلِ الصَّفِّ اَلأوَّلِ فِى الأَسْحَارِ عَجْلانَا
تُوَاظِبُ الصَّوْمَ يَوْمَ الخَمِيسِ ، وَفِى الْـ
إثْنَيْنِ ، حَتَّى لَقَدْ أَمْسَيْتَ خَمْصَانَا
وَكَمْ مَمَالِكَ قَدْ دَبَّرْتَ حَوْزَتَهَا
فَكُنْتَ خَيْرَ وَزِيرٍ ، قَطُّ مَا خَانَا
وَتَسْتَقِيمُ بِكَ الأَحْوَالُ مَاشِيَةً
حَتَّى تَفِيضَ بِكَمَ الأَمْوَالُ طُوفَانَا
للهِ دَرُّكَ ، كَمْ جَمَّلْتَ مَدْرَسَةً
وَبِالْكِتَابَةِ كَمْ شَرَّفْتَ دِيوَانَا
فَكُنْتَ فِى الجُودِ غَيْثًا ، وَالهُدَى عَلَمًا
وَفِى الحِجَا حُجَّةً ، وَالعِلْمِ نَهْلانَا

والقصيدة طويلة ، وهى فى جملتها ترسم بصمات هذه الشخصيّة المتفرّدة فى الأمانة ، والعبادة .

---

(١) أعيان العصر ٢ / ٤٢٨ - ٤٣٠ ، والشطر الثانى من البيت الأول مضمن من رثاء حسّان بن ثابت لعثمان بن عفّان ، وأوّله :

« ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ

ثالثا : الهجاء :

لم أجد له شعرا فى الهجاء ؛ ولا يُتَوَقَّعُ منه هجاء فكيف يكون هجّاءًا من « كان إليه المنتهى فى مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم ؟ » [١] ، وكيف يكون سبَّابًا لعّانًا من كان عفّ اللسان ،لم يتعرّض ، قط لأعراض الناس ، ولم يجرّح شخصا ، ولو كان يستحق التجريح ، وقد مرّ بنا فى هذه الدراسة [٢] أنّ سيف الدين قَرَابُغَا أراد انتزاع مملوكه مراد ، وتقديمه هديّة لأستاذه سيف الدين أرغون شاه ، وهو مسلك عدوانى ، يستحقّان عليه الهجاء ، ولو كان فى مكانه شاعر آخر لأوسعهما هجوا وذمّا ، ولكنّ الصفدى طلب من رئيسه فى الديوان ردّ مملوكه ، دون أنْ يتعرّض لأحد من الناس بما يسىء .

لا تخلو الحياة مما يكدّر صفوها ، وتمر بالإنسان ظروف تؤلمه ، وتوجب التفريج عن النفس بالشكوى ، وقد انتهج الصفدى طريقا اختصّ بها ، وسلك دربًا لم يسلكه غيره من الشعراء ، فإذا حَزَبَه أمر ، واذْلَهَمّ عليه خَطْب لجأ إلى الصبر ، واستبدل بالهجاء « صورة مصير الظالم » يعرضها دون تَشَفٍّ ، أو إظهار للفرح بما أصابه ؛ وإنّما يقدّمها عظة لمن يريد أنْ يتّعظ ؛ قال عن أرغون شاه [٣] : « إنّه جَبَّارٌ سفّاك ، طالب لثأره درّاك ، يده والسيف يمتشقه ، وغيظه يؤدّيه إلى العطب ، وخُلُقُه ، لا يشرب الماء إلاّ من قليب دم ، ولا يتنسّم الهواء إلاّ بشم سَمّ ، ومع ذلك إذا ظهر له الحق رجع فى الحال ، وندم على ما فَرَط منه واستحال لكنّه تروح فى ذلك الغضب أرواح ، وتُجَبُّ مذاكير ، وتُقَطَّعُ أَحْرَاح .

وكان فى دمشق زمن الطاعون ، فما طُعِن على عادة الملوك ، وإنّما طُعِن بالسيف الذى يذر الدم وهو مسفوك .

وقلت أنا فيه :

تَعَجَّبْتُ مِنْ أَرْغُونَ شَاهٍ وطَيْشِهِ الَّـ ـذِى كَانَ فِيهِ لاَ يَفِيقُ ، وَلاَ يَعِى
وَمَا زَالَ فِى سُكْرِ النِّيَابَةِ طَافِحًا إِلَى حِينِ غَاضَتْ نَفْسُهُ فِى المُنَيْبِعِ

---

(١) الدرر الكامنة ٢ / ٨٨ .

(٢) راجع صفحة ٨٧ .

(٣) أعيان العصر ١ / ٤٦١ - ٤٦٢ .

وكان هذا النهج دأبه مع الملوك ، والأمراء ، لا يهجو ، ولا يسب ، وإنّما يسوق نهايته بما يوحى بانتقام الله ؟ من كل ظالم وأنَّ عاقبة البغى وخيمة .

وأمَّا إذا كان الأذى يأتيه من الأهل والأصحاب اكتفى بذم الزمان ، والإخوان ، دون فحش ، أو تعريض ، يقول [١] :

إنِّى لأَعْجَبُ مِنْ دَهْرٍ مُنِيتُ بِهِ ... عَلَىَّ أَحْشَاؤُهُ بِالْحِقْدِ تَضْطَرِمُ
مُقَطِّبٍ وَجْهَهُ إلاَّ إذَا طَلَبَتْ ... نَفْسِى صَدِيقَ وَفَاءٍ ظَلَّ يَبْتَسِمُ

وعِنْدَما يضيق به الأمر ، يصيح [٢] :

أَيَا مَنْ يُنَادِى فِى الشَّدَائِدِ صَاحِبًا
أَ تَطْلُبُ رِيًّا مِنْ سَرَابِ السَّرَابِخِ ؟
فَدَيْتُكَ ، هَلْ عِنْدَ الأَصَمِّ إجَابَةٌ
وَلَوْ كُنْتَ تَرْقَى فِى صَوَارِى الصَّوَارِخِ ؟

وكراهيته للهجاء نابع من تصوّره لوظيفة الشعر فى حياة الأديب ، وهو ما صوّره بقوله [٣] :

لا تُبْرِزِ النِّظْمَ فِى هَجْوٍ فَإنَّ لِمَنْ ... أَبْدَى مَعَانِيهِ فِى الأَوْزَانِ أَوْزَارَا
وَصِفْ زَمَانَ الصِّبَا إنْ كُنْتَ نِلْتَ بِهِ ... مَعَ الأَحِبَّةِ فِى الأَوْطَانِ أَوْطَارَا

فالشعر ، عنده ليس وسيلة لسب الناس ، والتشهير بهم ، فلم يسلم من المعاصى إنسان ، والشاعر إنسان له عيوبه ، وأوزاره وحقيق به أنْ يعذر الناس إنْ أَخْطَئُوا ، وأنْ يجعل شعره وفنّه لتصوير العواطف النبيلة ، ومشاعر الانتماء إلى الجماعة ، والأنس بهم ، والسعادة فى التعاون معهم على تحقيق الآمال .

---

(١) الروض الناسم ٦ / ب .

(٢) الروض الباسم ٧ / أ .

السّرابخ : الأرض الواسعة ، البعيدة ، أو هى المِضَلَّة التى لا يهتدى فيها السالك إلى طريق . انظر : اللسان « سربخ » ٣ / ٢٤ .

والصَّوارخ : لعلّه يريد سفن النجّدة والإغاثة .

(٣) نفسه ٦٥ / ب .

وكثيرا ما يفضّل الوحدة على مخالطة الناس [١] :

وَجَدْتُ فِى عِشْرَةِ صَحْبِى أَذًى ... لَمَّا لَزِمْتُ الْبَيْتَ ، فِى الْوَقْتِ زَالْ
يَا عَجَبًا مِنْ أَشْعِرِىٍّ غَدَا ... يَحْمَدُ رَأْىَ النَّاسِ فِى الإِعْتِزَالْ

ولهذا عقد أبوابا فى كتابه « الروض الباسم » للزهد ، والصبر ، والقناعة ، والوحدة والتخلّى ، وذم الزمان والإخوان ، ومكارم الأخلاق ، والأمر بالجود ، والعفة والتقى ، والحزم وعلوّ الهمّة ، والحكم والأمثال ، والتشوّق ودوام العهد ، وغيرها من الأبواب ، ولا نجد فيه بابا للهجاء .

فمما قاله فى الزهد [٢] :

أَدْعُوكَ يَا مُوجِدَ الأَشْيَاءِ مِنْ عَدَم ... وَصَانِعَ العَالَمِ العُلْوِىِّ ، والأَرْضِى
إِذَا عَرَضْتَ بِيَوْمَ الحَشْرِ لِى عَمَلاً ... فَلاَ تُقَدِّرْ لَهُ طُولاً عَلَى عَرَضِى

وقال فى الصبر [٣] .

لَوْ يَعْلَمُ الدَّهْرُ مِنِّى أَنَّ مُصْطَبَرِى ... يَغْتَالُ صَرْفَ اللَّيَالِى ، ثُمَّ يَفْتَرِسُ
كَانَتْ جِيَادُ الرَّزَايَا كُلَّمَا اطَّرَدَتْ ... تَحُومُ حَوْلَ رُبُوعِى ، ثُمَّ تَنْعَكِسُ

وقال فى القناعة [٤] .

إِذَا مَلَكَ الإِنْسَانُ ثَوْبَ قَنَاعَةٍ ... تَرَشَّفَ كَأْسَ العِزِّ فِى النَّاسِ سَابِغَهْ
وَ لَمْ يَخْشَ مِنْ فَقْرٍ رَمَتْهُ سِهَامُهُ ... لأَنَّ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللهِ سَابِغَهْ

ومن طريف ما أورده فى الوحدة قوله [٥] :

مَنْ لَمْ يُعَايِنْ مِنْ بَاطِنِى سِمَةً ... وَلَمْ يُشَاهِدْ مِنْ ظَاهِرِى سَمْتَا
لَمْ أَلْقَ لِى فِى ضَمِيرِهِ مِقَةً ... وَلَمْ أُصَادِفْ لِى عِنْدَهُ مَقْتَا

رابعا : الغَزَل :

قسّم الصفدى غزله على الفصول الآتية : العفّة والتقى ، والمحبّة ، والتشوُّق ودوام العهد ، والسهر وزيارة الخيال والحبيب ، وفى الدموع ، وفى بكاء الحبيب ،

---

(١) الروض الباسم ٦ / أ .
(٢) الروض الباسم ٢ / أ .
(٣) نفسه ٣ / ب .
(٤) نفسه ٥ / أ .
(٥) الروض الباسم ٦ / ب .

وفى العذال والوشاة ، وفى العتاب ، وفى الاعتذار ، وفى السلوان ، وفى الملاحة ، وفى الجوارى ، وفى الغلمان ، وفى العناق والتقبيل .

فمما قاله فى العفّة والتقى [١] :

بِنَفْسِى مَنْ إذَا ادّكَرَ اكْتِئَابِى ... وَأَنِّــى لا أَرَى الأَوْزَارَ زَارَا
يَبِيتُ ، وَلِلتُّقَى حَرَسٌ عَلَيْهِ ... وَلِى فَإِذَا رَأَى الأَسْحَارَ حَارَا
فَلِى قَلْبٌ إذَا ذَكَرَ اللَّيَالِى الَّـ ... ـتِى نِلْنَا بِهَا الأَوْطَارَ طَارَا

ومما قاله فى المحبّة [٢] :

تَمَتَّعْتُ مِنْ وَجْهِ الحَبِيبِ بِنَظْرَةٍ ... فَأَصْبَحَ فِى عِطْفَىَّ هِزَّةُ نَشْوَانِ
فَلاَ تُنْكِرُوا سُكْرِى بِرُؤْيَاهُ إنَّنِى ... سَقَتْنِى حُمَيَّا الحُبِّ رَاحَةُ إنْسَانِى

ومما قاله فى التشوّق وذكر العهد [٣] :

تَذَكَّرْتُ عَيْشًا مَرَّ حُلْوًا بِكُمْ ، فَهَلْ ... لأَيَّامِنَا تِلْكَ الذَّوَاهِبِ وَاهِبُ ؟
وَمَا انْصَرَفَتْ آمَالُ نَفْسِى لِغَيْرِكُمْ ... وَلا أَنَا عَنْ هَذِى الرَّغَائِبِ غَائِبُ
سَأَصْبِرُ كَرْهًا فِى الهَوَى غَيْرَ طَائِعٍ ... لَعَـلَّ زَمَانِى بِالحَبَايِـبِ آيِبُ

ومما قاله فى السهر [٤] :

أَتَانِى وَقَدْ أَوْدَى السُّهَادُ بِنَاظِرِى ... يُمَزِّقُ جُنْـحَ اللَّيْلِ بَارِقُ فِيـهِ
فَقُلْتُ لَهُ : يَا طَيِّبَ الأَصْلِ هَكَذَا ... أَخَذْتَ الكَرَى مِنِّى ، وَعَيْنِىَ فِيهِ

ومما قاله فى الدموع [٥] :

أَرَادَ الـغَـمَـامُ إِذَا مَـا هَـمَـى ... يُعَبِّرُ عَنْ عَبْرَتِى ، وَانْتِحَابِى
فَـجَاءَتْ بُجُفُونِىَ مِنْ دَمْعِهَا ... بِمَا لَمْ يَكُنْ فِى حِسَابِ السَّحَابِ

---

(١) نفسه ٨ / أ .
(٢) نفسه ١١ / ب .
(٣) الروض الباسم ١٣ / أ .
(٤) نفسه « مخطوط أيا صوفيا » بخط المؤلف ، وهو غير مرقم .
(٥) الروض الباسم ١٦ / أ .

ومما قاله فى بكاء الحبيب [١] :

لا تَحْسَبُوا أنَّ حَبِيبِى بَكَى ... لِى رَحْمَةً ، يَا بُعْدَ مَا تَحْسَبُونْ
لَمْ يَبْكِ لِى مِنْ رِقَّةٍ ؛ إنَّمَا ... أرَادَ أنْ يَسْقِى سُيُوفَ الْجُفُونْ

ومما قاله فى العذال والوشاة [٢] :

أَلَحَّ عَـذُولِى فِى هَـوَاهُ ، وَزَادَ فِى
مَلامِى ؛ فَقُلْتُ : احْتَلْ عَلَى غَيْرِ مَسْمَعِى
فَلَمْ يَـدْرِ مِنْ فَرْطِ الوُلُوعِ بِذِكْـرِهِ
مُصِيبَتُـهُ ؛ حَتَّى تَعَشَّقَـهُ مَعِى

ومما قال فى العتاب [٣] :

تَلَطَّفَ بِى إلَى أنْ حَازَ قَلْبِى ... وَلَمَّا صَارَ طَوعَ يَدَيْهِ خَانَهْ
فَقُلْتُ ، وَقَدْ بَدَا لِى فِى عِتَاب : ... فَدَيْتُكَ ، لا أَمَانَ ، وَلا أَمَانَهْ ؟

ومما قال فى الاعتذار ، وكتب بها إلى صاحب عمل وليمة ، ولم يتّفق له حضورها [٤] :

يَـا مَـنْ إذَا مَـا أتَـاهُ ... أَهْـلُ الْـمَـوَدَّةِ أَوْلَـمْ
أَنَـا مُـحِـبُّـكَ حَـقًّـا ... إنْ كُنْتُ فِى الْقَوْمِ أَوْ لَمْ

ومما قال فى السلوان [٥] :

قُولُوا لَهُ : رُدَّ النِّفَارَ إلَى الظِّبَا ... وَالْـمَيْـلَ فَرْقَهُ عَلَى الأَغْصَانِ
أَوْ هَاتِ غَيْرِى لِلتَّجَنِّى وَالجَفَا ... فَأَنَا اسْتَجَرْتُ بِذِمَّةِ السُّلْوَانِ

ومما قاله فى الملاحة [٦] :

يَقُولُ لِى : شَبَّهْتَ غُصْنَ النَّقَا ... بِقَامَتِى . وَهْوَ لَهَا سَاجِدُ

---

(١) نفسه ١٧ / ب .
(٢) نفسه ١٩ / أ .
(٣) نفسه ٢١ / أ .
(٤) الروض الباسم ٢١ / ب .
(٥) نفسه ٢٢ / ب .
(٦) نفسه ٢٣ / أ .

وَقُلْتَ : وَجْهِي مِثْلُ بَدْرِ الدُّجَا ... فِي تِمِّه . وَهْوَ لَهُ حَاسِدُ
وَمَا كَفَى أَنَّكَ شَبَّهْتَنِي ... بِالظَّبْيِ . وَهْوَ النَّافِرُ الشَّارِدُ
حَتَّى تَقُولَ : الشَّعْرُ مِثْلُ الدُّجَا ... وَاللهِ ، هَذَا طَمَعٌ زَائِدُ

ومما قاله فى الجوارى ، قال فى مليحة فى حاجبها أثر [١] :

حَوْرَاءُ قَدْ زَانَهَا فِي خَدِّهَا أَثَرٌ ... وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْ ذَا صَفْحَةُ الْقَمَرِ
وَا طُولَ شَجْوِ الْمُعَنَّى فِي صَبَابَتِهِ ... إِذَا تَرَدَّدَ بَيْنَ العَيْنِ ، وَالأَثَرِ

ومما قاله فى الغلمان ، قال فى مليح نقّاش [٢] :

أَحْبَبْتُ نَقَّاشَ صَاغَةٍ شَهِدَتْ ... لَهُ بِفَرْطِ الْمَحَاسِنِ الْحُورُ
يَصِيدُ قَلْبَ الْوَرَى بِنَاظِرِهِ ... فَجَفْنُهُ كَاسِرٌ ، وَمَكْسُورُ

ومما قاله فى العناق والتقبيل [٣] :

أَفْدِي الَّذِي تَيَّمَنِي ... وَلِلضَّنَى أَسْلَمَنِي
لَوْ مِتُّ ، وَهْوَ حَاضِرِي ... عِشْتُ إِذَا قَبَّلَنِي

خامسا : الوصف :

شارك الصفدى شعراء عصره فى نظم كثير من الأوصاف البشرية ، والحيوانية ، والطبيعية ، وقسّم وصفه على الأبواب الآتية : فى الوجوه ، فى العيون ، فى الخال ، فى الثغر فى الخال ، فى هيف القوام ، فى الشَّعَر ، فى العذار ، فى مجالس الأنس والسقاة والندامى ، فيما يكتب على الآلات ، فى الهدايا ، فى وصف الخيل ، فى الليل والقمر والنجوم ، فى الرياض ، فى الماء ، فى المنازل والطرقات .

فمما قاله فى الوجوه [٤] :

أُسَائِلُ عَنْ أَرْضٍ أَلِفْتُ رُبُوعَهَا ... وَفِيهَا حَبِيبٌ نِلْتُ مِنْهُ مُرَادِي
فَقَالُوا : مَتَى تُظْلِمْ جَلاهَا بِوَجْهِهِ ... فَقُلْتُ : أَنَا أَدْرَى بِشَمْسِ بِلادِي

---

(١) الروض الباسم ٢٥ / ب .
(٢) نفسه ٢٨ / ب .
(٣) نفسه ٤٦ / أ .
(٤) الروض الباسم ٢٩ / ب .

ومما قاله فى العيون [١] :

السَّيْفُ قَالَ لِطَرْفِهِ التُّـ ... ـرْكِيِّ : لا كَانَ الْمُهَنَّدْ
وَرِيقُـهِ اعْتَـرَفَ الطُّلا ... وَالشُّهْدُ قَالَ : كَذَاكَ أَشْهَدْ
وَأَنَا الفَقِـيرُ لِوَصْلِـهِ ... وَحُسَامُ مُقْلَتِـهِ مُجَـرَّدْ

ومما قاله فى الخال على الفم [٢] :

بِـثَـغْـرِهِ خَـالُ نَـدٌّ ... فَلَيْسَ يَحْكِيهِ نِـدُّ
كَـخَـاتَـمٍ مِنْ عَـقِـيقٍ ... وَفَـصُّـهُ لازَوَرْدُ

ومما قاله فى الثغر [٣] :

رَشَفْتُ رِيقَكَ حُلْوًا ... وَلَمْ يَكُنْ لِىَ صَبْرُ
وَسَوْفَ أَحْظَى بِوَصْلٍ ... فَأَوَّلُ الغَيْثِ قَطْرُ

وفى البيتين الآتيين ، تبدو شاعريّة الصفدى نقيّة مبدعة ، مع خفاء الصنعة فى التورية الرائعة ، قال [٤] :

يَا قَلْبُ ، إنْ زَادَ الظَّمَا ... فَاقْصِدْ مَرَاشِفَهُ الشَّهِيَّهْ
إنِّى لأَعْـرِفُ مَـنْـهَـلاً ... يَشْفِى الجَوَى عِنْدَ الثَّنِيَّهْ

ومما قاله فى هيَف القوام ، ودقّة الخصر [٥] :

بِـأَبِـى أَهْـيَـفٌ تَـعَـلَّـمَ مِـنْـهُ ... غُصُنُ الْبَانِ مَيْلَهُ ، وَاعْتِدَالَهْ
مَا تَثَنَّى عِطْفَاهُ إلاَّ وَأَمْسَتْ ... أَلِفُ القَـدِّ بِـالنَّسِيـمِ مُـمَـالَهْ
وَحَكَاهُ الْخَطُّ لَوْنًا ، وَلِينًا ... لَمْ يَزِدْهُ ؛ وَذَاكَ شَرْطُ العَدَالَهْ

فى الشَّعَر [٦] :

لَوْلاَ شَفَاعَةُ شَعْرِهَا فِى صَبِّهَا ... مَا خَفَّفَتْ بِالْوَصْلِ مِنْهُ سَقَامَا

---

(١) نفسه ٣٢ / أ .
(٢) نفسه ٣٦ / ب .
(٣) الروض الباسم ٣٤ / أ .
(٤) نفسه ٣٤ / أ .
(٥) نفسه ٤٠ / ب .
(٦) نفسه ٤٣ / ب .

لَكِنْ تَنَازَلَ فِى الشَّفَاعَةِ عِنْدَهَا وَغَدَا عَلَى أَقْدَامِهَا يَتَرَامَى

ومما قاله فى العذار [١] :

عِذَارُكَ والطَّرْفُ يَا قَاتِلِى يُحَاكِيهِمَا الآسُ ، والنَّرْجِسُ
وَقَدْ صَارَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةً فَهَذَا يَدِبُّ ، وَذَا يَنْعُسُ

ومما قاله فى مجالس الأنس والسقاة والندامى [٢] :

كُئُوسُ الْمُدَامِ تُحِبُّ الصَّفَا فَكُنْ لِتَصَاوِيرِهَا مُبْطِلاَ
وَدَعْهَا سَوَاذِجَ مِنْ نَقْشِهَا فَأَحْسَنُ مَا ذُهِّبَتْ بِالطِّلاَ

ومما قاله فيما يكتب على الآلات [٣] :

قال فيما كتب على كُرْسِى مصحف ، من أبيات :

حَمَلْتُ عَلَى ضَعْفِى الَّذِى كَلِمَاتُهُ لِهَيْبَتِهَا يَصَّدَّعُ الْجَبَلُ الرَّاسِى
تَدَاخَلَ مِنِّى الْبَعْضُ فِى الْبَعْضِ خِيفَةً لأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَضْحِى عَلَى رَاسِى

ومما قاله فى هديَّة شعر ، بعث بها إليه ابن نباتة [٤] :

أيَا ابْنَ نُبَاتَةٍ ، أَهْدَيْتَ شِعْرًا نَصِيبِى سُكَّرٌ مِنْهُ ، وَسُكْرُ
يَفُوتُ الغَيْثَ عَدًّا وَهْوَ حُلْوٌ فَشِعْرُكَ كَيْفَ مَا حَاوَلْتَ قَطْرُ

ومما قاله فى وصف الخيل ، قال فى حصان أبلق [٥] :

تَخَالُهُ فَلَكًا قَدْ سَارَ مُحْتَوِيًا عَلَى النَّهَارِ ، وَجُنْحِ اللَّيْلِ فِى نَسَقِ
فَكَمْ لِسُنْبُكِهِ نَجْمٌ إِذَا قَرَعَ الصَّـ ـفَا ، وَكَمْ مِنْ هِلالٍ مِنْهُ فِى الطُّرُقِ

ومما قاله فى الليل والقمر والنجوم [٦] :

كُلَّمَا مَدَّتِ النُّجُومُ شِبَاكًا مَنَعَ الصُّبْحُ أَنْ تُصَادَ الغَزَالَهْ
أَوْ تَبَدَّتْ فِيهَا طَلائِعُ فَجْرٍ سَلَّ بَرْقُ الدُّجَا عَلَيْهَا نِصَالَهْ

---

(١) الروض الباسم « مخطوط أيا صوفيا » ، ٥٨ / ب .
(٢) نفسه ٧٨ / أ .
(٣) نفسه ٩١ / ب .
(٤) نفسه ٨٦ / ب .
(٥) الروض الباسم ٥٣ / ب .
(٦) نفسه ٤٥ / ب .

ومما قاله فى الرياض [١] :

للهِ رَوْضٌ شَقَّقَ الأَكْمَامَ مُذْ ... جَرَّتْ بِهِ أَذْيَالَهَا النَّسَمَاتُ
وَكَأَنَّمَا الأَطْيَارُ فَوْقَ غُصُونِهَا ... سَطْرٌ عَلَى أَلِفَاتِهِ هَمَزَاتُ

ومما قاله فى الماء [٢] :

قَدْ حَارَبَ الرِّيحَ نِيلُ مِصْرٍ ... وَعَضَّ مِنْ غَيْظِهِ الأَصَابِعْ
فَجَاءَتِ الرِّيحُ بِانْزِعَاجٍ ... كَسَّرَ مِنْ مَوْجِهِ الأَضَالِعْ

ومما قاله فى المنازل والطرقات [٣] :

قال يصف أهرام مصر :

قَدْ ضَلَّ فِى خَبَرِ الأَهْرَامِ عَقْلُ فَتًى ... أَرَادَ تَحْقِيقَهُ فِى سَالِفِ الْحُقُبِ
وَلَيْسَ يَعْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ أَبْنِيَةٍ ... شَابَتْ نَوَاصِى اللَّيَالِى وَلَمْ تَشِبِ

سادسا : الفخر والحماسة ومكارم الأخلاق :

وقد فرّقها الصفدى فى الأبواب الآتية : الأمر بالجود ، الحزم وعلو الهمّة ، مكارم الأخلاق ، الحكم والأمثال .

فمما قاله فى الأمر بالجود [٤] :

لا تَجْمَعِ الدِّينَار ، وَاسْمَحْ بِهِ ... وَلاَ تَقُلْ : كُنْ فِى حِمَى كِنْفِى
مَا الدَّهْرُ نَحْوِىٌّ فَيَنْحُو الْهُدَى ... وَيَمْنَعُ الجَمْعَ مِنَ الصَّرْفِ

ومما قاله فى الحزم وعلوّ الهمّة [٥] :

إنْ أَنَا لَمْ أَجِدَّ فِى كَسْبِ مَالٍ ... لاقْتِنَاءِ العُلا فَكَيْفَ أَجُودُ ؟
وَإِذَا لَمْ أَسُدَّ خَلَّةَ خِلٍّ ... هَاتِ قُلْ لِى بِاللهِ كَيْفَ أَسُودُ ؟

ومما قاله فى مكارم الأخلاق [٦] :

---

(١) الروض الباسم ٦٤ / ب .
(٢) نفسه ٤٩ / أ .
(٣) الروض الباسم ٥٢ / ب .
(٤) نفسه ٥ / ب .
(٥) نفسه ٨ / ب .
(٦) الروض الباسم ٩ / أ .

فِى أَهْلِ مِصْرِ مَعَانٍ مِنْ لُطْفِهِمْ تُسْتَفَادُ
نَرْدُ السِّيَادَةِ فِيهِمْ لَمَّا رَعَوا الْجَار سَادُوا

ومما قاله فى الحكم والأمثال [١] :

لا تَسْعَ فِى أَمْرٍ ، وَلا تَعْمَلْ بِهِ مَا لَمْ يَزِنْهُ لَدَيْكَ عَقْلٌ ثَانِ
فَالشِّعْرُ مُعْتَدِلٌ بِوَزْنِ عَرُوضِهِ وَكَذَا اعْتِدَالُ الشَّمْسِ بِالْمِيزَانِ

سابعا : أغراض مختلفة :

جارى الصفدى شعراء عصره فى النظم فى أغراضهم المختلفة ، ورتّب شعره فى هذه الأبواب : الألغاز والأحاجى ، المكاتبات ، الشِّعْر ، المجون ، المعانى المختلفة .

الألغاز والأحاجى : نظم فيها الصفدى كثيرا ، وألّف فيها كتابه « نجم الدّياجى فى نظم الأحاجى » ولا يخلو كتاب من كتبه من ذكر بعضها ، وبخاصّة « ألحان السواجع » ؛ فقد كان حريصا على ذكر ما تحاجى به هو وأصحابه ، من ذلك قوله [٢] ملغزا فى قُرْط :

أَرَأَيْتَ نَجْمًا ، قَطُّ فِى غَيْرِ السَّمَا يَحْوِيهِ قُطْرُ ؟
وَهُوَ النَّبَاتُ لَدَى الوَرَى وَإِذَا قَلَبْتَ البَعْضَ قَطْرُ

المكاتبات : لا تكاد تخلو ترجمة من تراجم أعيان العصر من مكاتبات بين الصفدى ومعارفه ، وأصدقائه ، وشيوخه ، بعضها مدح ، أو تشوّق ، أو عتاب ، أو اعتذار ، أو طلب عارية ، أو شكر على هديّة ، أو استدعاء إجازة ، وغير ذلك مما يكون بين الأحباب ، وفى بعضها أسئلة علمية فى النحو أو التفسير ، فمن ذلك ما كتب به إلى على بن الحسين ، زين الدين ، ابن شيخ العوينة ، السؤال شعر ، والإجابة شعر ونثر ، قال الصفدى [٣] :

أَلاَ إِنَّمَا الْقُرْآنُ أَكْبَرُ مُعْجِزٍ لأَفْضَلِ مَنْ يُهْدَى بِهِ الثَّقَلانِ

---

(١) نفسه ١٠ / أ .
(٢) نفسه ٥٧ / أ .

(٣) أعيان العصر ٣ / ٣٣٧ ، والسؤال عن قوله تعالى : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ [سورة الكهف ١٨ : ٧٧] ، والسؤال هو : لماذا قال : استطعما أهلها ، ولم يقل : استطعماهم ، اختصارا ؟

وَمِنْ جُمْلَةِ الإِعْجَازِ كَوْنُ اخْتِصَارِهِ ... بِإِيجَازِ أَلْفَاظٍ ، وَبَسْطِ مَعَانِ
وَلَكِنَّنِي فِي الكَهْفِ أَبْصَرْتُ آيَةً ... بِهَا الْفِكْرُ فِي طُولِ الزَّمَانِ عَنَانِي
وَمَا ذَاكَ إِلاَّ ﴿ اسْتَطْعَما أَهْلَهَا﴾ فَقَدْ ... نَرَى « اسْتَطْعَمَاهُمْ » مِثْلَهُ بِبَيَانِ
فَمَا الحِكْمَةُ الغَرَّاءُ فِي وَضْعِ ظَاهِرٍ ... مَكَانَ ضَمِيرٍ ؛ إِنَّ ذَاكَ لِشَانِ

الشِّعْر [١] : كتب الصفدى مقطوعات كثيرة عن الشعر ، وعن قدر الشاعر ، ورسالته فى المجتمع ، وما يجرّه الشعر على صاحبه وعلى الناس من شرور ، وما فيه من نكت وطرائف ، وما يعاب به قائله ... ومن ذلك قوله فى موهبة الشاعر وثقافته :

أَلاَ إِنَّ فَنَّ النَّظْمِ يَحْتَاجُ رَبُّهُ ... إِلَى لُطْفِ ذَوْقٍ فِي مَجَالِ مَجَازِهِ
وَكَسْبِ عُلُوٍّ فِي عُلُومٍ إِذَا أَتَى ... إِلَى بَابِهِ أَلْقَتْ حِجَابَ حِجَازِهِ

المجون [٢] : نظم فيه الصفدى كثيرا جدّا ، وهى ظاهرة فاشية فى شعراء هذا العصر ، ومثقفيه ، وعلمائه ، بعامّة ، وعند صلحائه ، وزهّاده ، بخاصّة ، وربّما كانوا يجدون فيه نوعا من التنفيس عن المشاعر المكبوتة ، ويستروحون به من هموم الحياة ، ومن ثقل أعباء العيش ، ولم يكن فى المجون ما يعيب الشخص ، أو يحطّ من قدره ، أو يسىء إلى خُلُقِهِ ، أو يشكّك فى أمانته ، ونزاهته ، وعدالته ، ويبدو أنّ المجون فى عصرنا شىء معيب ؛ بسبب مزاحمة المرأة للرجال ، فى جميع الأعمال ، وتواجدها فى كل مكان ، مما يضع قيودا على الرجال فى حديثهم ، ولم تكن تلك القيود موجودة فى مجتمع الرجال ، وحدهم ، حيث تنبسط أحاديثهم ، وتتنوّع أسمارهم ، ويتندّرون على سجيّتهم ، وكان الصفدى ينظم فى المجون ، و « يستغفر الله من قول بلا عمل » ، وإنّما نظمه مجاراة لأقرانه ، فمن طريف مجونه قوله ، وقد تواترت الأنباء عن سيول ومخائض فى المنوفيّة [٣] :

قُلْتُ لَهُ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى ... مَخَاضَةِ أَهْوَالُهَا صَعْبَهْ :
جُزْ ، لاَ تَخَفْهَا . قَالَ لِي : كَيْفَ لاَ ... أَخَافُ شَيْئًا يَصِلُ الرُّكْبَهْ ؟

---

(١) الروض الباسم ٦٥ / ب .
(٢) نفسه ٦٦ / ب .
(٣) نفسه ٦٦ / ب .

ومدلول الأبيات يفيد تغيّرا كبيرا فى طقس مصر ؛ إذْ يبدو أنّ الأمطار كانت غزيرة فى ذلك الوقت ، فى حوض البحر الأبيض المتوسط بحيث كانت تحدث سيولا ، ومخائض تعوق حركة الناس ، فى الطرقات ، وربّما أتلفت الزروع ، وأهلكت الحيوان ، وفى كتب التاريخ كثير من أخبار السيول التى كانت تجتاح البلاد .

المعانى المختلفة : وتحت هذا العنوان أورد الصفدى مقطوعات كثيرة من شعره فى معان لا تنحصر فى أبوابه السابقة ، مثل : المداعبات بين الأصحاب ، والمعارضات التى يقترحها عليه الأدباء وما يكتب تقريظا على كتاب ، وفى التهنئة بمولود ، وغير ذلك .

قال [١] :

حَكَى لِى صَدِيقٌ صَادِقٌ حَالَ ظَالِمٍ ... بِسِيرَتِهِ الأَيَّامُ تُصْبِحُ مُظْلِمَهْ
وَقَالَ : بَنَى بِالجَوْرِ ، لاَ الجَوْرِ قَاعَةً ... فَقُلْتُ : تَرَاهَا عَنْ قَلِيلٍ مُرَخَّمَهْ

وشرح توريته بقوله : « يعنى حذف الأخير منها ، فتبقى قاعا » والترخيم فى قواعد النحو حذف الزائد من الاسم ، وعندما تصبح القاعة « قاعا » أى : خرابا ؛ لأنّها بنيت بالظلم ، وهو يشير إلى قوله تعالى : ﴿ ﴾ [٢] .

أورد الدكتور ياسين الأيوبى سبع مقاطيع فى فنون مختلفة ، ومما قاله فى التصوير الشعرى عنده [٣] : « من هذه الصور البديعة قول صلاح الدين الصفدى يصف الأغصان المتثنية أمام أنسام الشمال الباردة ، فى ليلة مقمرة معتمة :

وَكَأَنَّمَا الأَغْصَانُ يُثْنِيهَا الصَّبَا ... وَالبَدْرُ مِنْ خَلَلٍ يَلُوحُ ، وَيُحْجَبُ
حَسْنَاءُ قَدْ عَامَتْ ، وَأَرْخَتْ شَعْرَهَا ... فِى لُجَّةٍ ، وَالْمَوْجُ فِيهَا يَلْعَبُ

لعلّنا لا نسوغ التشبيه للوهلة الأولى ، لكننا ، مع التأمّل ، والموازنة نقع على تشبيه تمثيلى متعدد العناصر ، والوجوه تتداخل بلطف ، لا يلحظها إلاّ العارف بتحركات ، الضوء ، والظل وأمواج البحر .

---

(١) الروض الباسم ٧٤ / ب .

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٠٦ .

(٣) آفاق الشعر العربى ٢١٠ .

فهناك الأغصان فى مقابل القامة الأنثوية ، وأنسام الصَّبا فى مقابل الموج المضطرب ؛ وهناك أيضا البريق المضيء ، ونصاعة الجسد البضّ ، والاحتجاب ، فى مقابل الشعر الأسود ، ولا يخفى على القارئ النّابه ما يتضمنه التشبيه هنا من قلب المقياس ، وجعل المشبّه مشبَّهًا به ، والعكس بالعكس ؛ فبدلا من تشبيه الحسناء وهى فى لجّ الموج بالأغصان المتمايلة ، فى ليلة متعاقبة الضوء والعتم جعل الصورة معكوسة فأحدث وقعا حسنا ، وهو أسلوب دأب عليه شعراء العصر ؛ ليتخلّصوا من ربق التقليد » .

وإذا تيسّر جمع شعر الصفدى فى ديوان ، فسيكون ، بلا شك ديوانا ضخما ، فقد أحصيت له فى نتيجة كتابه « جنان الجناس » ٧٣٢ بيت من شعره ، وهو واحد من خمسة كتب تمثّل النتيجة فيها أبياتا من شعره ، فى الفن البديعى الذى من أجله صنّف الكتاب ، فلو أحصينا له فى كل كتاب منها عددا مشابها ، وراعينا أنّه قد يتكرر بعض المقاطيع لقلنا إنّ له فيها نحوا من ثلاثة آلاف بيت ، وإذا أضفنا إليها ما جاء فى كتبه الأخرى أصبح لدينا ديوانٌ كبيرٌ ، متعدد الفنون ، متنوع الأغراض ، معبّر عن مجتمعه وعصره أصدق تعبير ، ولكان موضوعا لدراسة فنيّة ، وأسلوبيّة طيّبة ، وبخاصة إذا عرفنا أنّ الصفدى نظم فى كل الفنون المستحدثة ، وله الموشحات الرائعة .

فمن قوله فى فنّ الزجل [1] :

يَا فُؤَادِى لا تَحَـوّل ... عَنْ هَوَى ذَا الظَّبْيِ الأَخوَرْ
إيَّاكَ أَنْ يُطْغِيكَ لائِمْ ... قَالَ : كِنُّكْ بُو تُعْذُرْ
ما تَرَى كَافُورْ خَدُّو ... وَعَلَيْهِ الْخَالْ عَنْبَرْ ؟
لاَ تَخَفْ صَوْلِةْ عِذَارُو ... دَعْ يِجِى ، وَيِرْكَبْ أَبْلَقْ

وأمّا الموشحات فقد اشتمل كتابه « توشيع التوشيح » على ٢٨ موشّحة له ، عارض فى بعضها كبار الوشّاحين ، وابتكر بعضها الآخر ، وعن أسلوبه ، وفنّه فى

---

(١) الغيث المسجّم ١ / ٣١٦ .

الموشحات لاحظ ألبير حبيب [١] - محقق الكتاب - أنّ معارضات الصفدى أقل جودة من الموشحات التى يبتكرها ؛ فإنّ تقيده بوزن الموشح الذى يعارضه ، وبروحه ، وبألفاظه - أحيانا - جعله يقع تحت تأثير الناظم الأول ، ولكن إذا نظرنا إليها منفصلة نجدها عملا متقنا ، يقِلُّ بهاؤها ، ورواؤها إذا قورنت بالموشح الأصلى ، ومع ذلك فإنّه استطاع ، فى بعض الأحيان أنْ يتفوّق على الأصل ، فمعارضته لموشّح ابن زهر [٢] :

قَلْبِى مِنَ الحُبِّ غَيْرُ صَاحِ صَاحِ
وَإِنْ لَحَانِى عَلَى المِلاحِ لاَحِ

ومعارضة الصفدى لها أوّلها :

يَا فَاضِحَ الْبَدْرِ فِى الكَمَالِ مَالِى
أَرَاكَ لَمَّا تَرَى انْتِحَالِى حَالِى

ومنها :

سَاقٍ مِنَ التُّرْكِ مَا سَقَانِى قَانِى
طَرْفِى إِذَا طَافَ بِالْمُدَامِ دَامِى
وَطَرْفُهُ بَالِغُ الْمَرَامِ رَامِى
وَهْوَ عَلَى مَضْرِبِ الْحُسَامِ سَامِى

وتفوّق الصفدى على ابن زهر فى هذا الموشّح خاصة راجع إلى خبرته الطويلة فى التجنيس .

وأمّا الموشحات التى نظمها ابتكارا فتمثّل شاعريّة مبدعة ، « ويبدو عمله متقنًا ، أنيقا ، يمتاز بالبساطة والذوق السليم [٣] :

شَبِّهُوا الْمَحْبُوبَ بِالْقَمَرِ

---

(١) مقدمة توشيع التوشيح ١٠ - ١١ .

(٢) أبو بكر ، محمد بن عبد الملك بن زهر ، الإيادى (٥٠٧ - ٥٩٥ هـ) طبيب ، وشّاح . انظر : الأعلام ٦ / ٢٥٠ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ٢٥٧ .

(٣) مقدمة توشيع التوشيح ١١ - ١٢ .

وَبِـرَوْضِ يَـانِـعِ الـزَّهَـرِ
وَبِـغُـصْـنِ نَـاعِـمِ نَـضَـرِ
وَ بِظَبْيِ سَاحِرِ الْحَدَقِ وَهْوَ عِنْدِى فَوْقَ مَا وَصَفُوا

شاع فى العصور الوسطى أنواع من الشعر تعتمد على وسائل زخرفية ، وأشكال هندسية ، أو مشجّرة ، واستعمله الشعراء فى التأريخ ؛ لإظهار براعتهم فى استعمال كلمات فيها حروف خاصة تتكرر فى كل كلمة ، أو الكلمات التى تشتمل على حروف معجمة ، أو خالية من الإعجام ، أو تتبادل فيها الحروف الإعجام والتجرد منها ، وغير ذلك من الألاعيب الشعرية التى أصبحت فى ذلك العصر من مقاييس براعة الشاعر ، وحسن تصرّفه [١] ، وكان للصفدى إسهام فى هذا النوع من الشعر ، فقد روى بيتين من المواليا للصفى الحلّى ، وهما [٢] :

تَقُولُ بَسَّكَ مِنِّى ، يَا شَقِيقَ الْبَدْرِ لِقَوْلِ ضِدِّكَ : عَنِّى بِالخَنَا وَالغَدْرِ
وَكَانَ ظَنُّكَ أَنِّى ، يَا جَلِيلَ القَدْرِ يَكُونُ ذَلِكَ فَنِّى ، عِنْدَ ضِيقِ الصَّدْرِ

هذان البيتان يُقْرأ النصف الأول من كل شطر منها ، فتصير بيتى شعر لهما وزن بذاته ، وإذا قُرِئَ البيتان المتولدان بالهجاء حرفا فحرفا ، خرج منهما بيتا مواليا قائما الوزن .

قال الصفدى : « وهذا عمل صعب إلى الغاية ، ولا يتأتّى إلاّ لذى القدرة ، والتسلّط على النظم ، وقد أردت أنْ أعمل مثل ذلك ، فأعان الله تعالى ، وفتح علىّ ، فقلت :

عَلِمْتَ أَنَّكَ حِبِّى ، يَا رَشِيقَ القَدْ وَقُلْتُ : وِدُّكَ طِبِّى ، يَا شَرِيقَ الْخَدْ
فَرَاعَ صَدُّكَ لُبِّى ، يَا سَعِيدَ الْجَدْ عَسَى يَرُدُّكَ رَبِّى ، يَا مَدِيدَ الصَّدْ

فشطر كل نصف أوّل يُقْرَأ ؛ فيكون قريضا ، وهو :

عَـلِـمْـتَ أَنَّـكَ حِـبِّـى وَقُـلْـتُ : وِدُّكَ طِـبِّـى

---

(١) راجع : مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى ١٦٧ - ٢٢٥ .
(٢) أعيان العصر ٣ / ٨٠ - ٨١ .

فَـرَاعَ صَـدُّكُ لُـبِّـى عَـسَـى يَـرُدُّكَ رَبِّـى

وإذا قرأت هذين البيتين بالهجاء حرفا فحرفا ، كان بيتى مواليا ، وهما :

عَيْنُ لامٍ ، مِيمُ تَاءٍ ، أَلْفُ نُونٍ ، كَافُ حَاءٍ ، بَاءُ يَا
وَاوُ قَافٍ ، لام تاءٍ ، وَاوُ دَالٍ ، كَافُ طَاءٍ ، بَاءُ يَا
فَاءُ راءٍ ، أَلْفُ عَيْنٍ ، صَادُ دَالٍ ، كَافُ لامٍ ، بَاءُ يَا
عَيْنُ سِينٍ ، أَلْفُ يَاءٍ ، رَاءُ دَالٍ ، كَافُ رَاءٍ ، بَاءُ يَا

والمتأمّل فى الأبيات يحكم للصفدى بالإجادة ، والتّفوق ، ونلاحظ أنّ وزن بيتى المواليا فى الأصل من البسيط ، وهو الغالب فيه ، والمتفرّع منهما من مجزوء البسيط ، وأمّا البيتان الأخيران فهما من الرمل المركب من خمس تفعيلات ، الأخيرة منها محذوفة .

فرض شعر الصفدى نفسه على نقّاد عصره ، ورواة الأدب فيما بعد ، فأكثر كتب ابن حجّة يقوم على اختيارات الصفدى ، وشعره ، وبخاصّة فى كتابيه : خزانة الأدب ، وكشف اللثام ، « وقد وردت أشعار الصفدى ، فى كل ديوان ، تقريبا صدر بعد زمنه ؛ وقد اسْتُشْهِد به كثيرا فى « حَلْبة الكميت » للنواجى [١] ، وفى معاهد التنصيص ، لعبد الرحيم العبّاسى » [٢] .

كما توجد اختيارات من شعر الصفدى فى كتاب : بستان العارفين ونزهة الناظرين » ، لأحمد بن حسن الشافعى (القرن الحادى عشر الهجرى) [٣] .

* * *

(١) محمد بن حسن بن على ، شمس الدين (٧٨٨ - ٨٥٩ هـ) أديب ، ناقد ، شاعر . انظر : الأعلام ٦ / ٨٨ ، ومعجم المؤلفين ٩ / ٢٠٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٤ / ٢٢٤ .

(٣) انظر : مجلة المجمع العلمى م ٢٠ / ٥٤ ، ومعجم المؤلفين ١ / ١٩٣ .